العربي السفير

غزة فوق العالم

المقداد جميل مقداد

كتب السفير العربي - 2025

غزة فوق العالم

المقداد جميل مقداد
كاتب وباحث من غزة

لوحة الغلاف للفنان العراقي : **ضياء العزاوي**

العربي الصغير

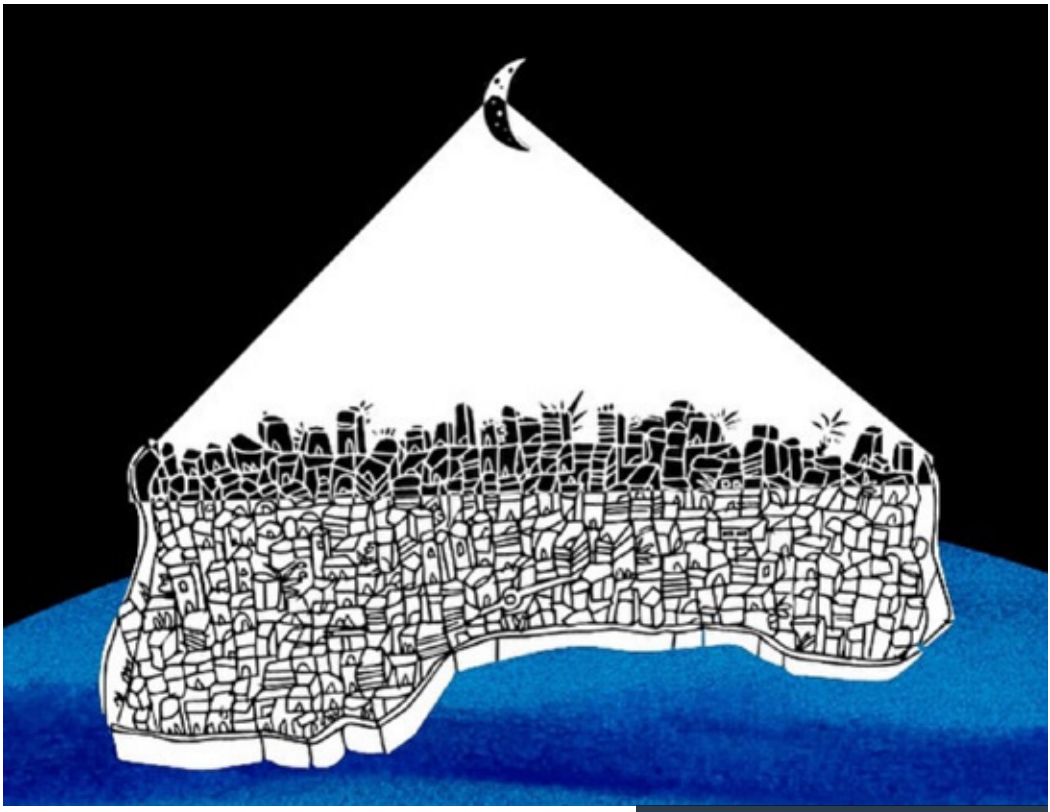

غزة. احمد الخالدي – فلسطين

غزة: لن ننسى ولن نسامح

نهلة الشهال
أستاذة وباحثة في علم الاجتماع السياسي،
ورئيسة تحرير «السفير العربي»

يُخيِّم على العالم شبحٌ من السواد الخانق. وثقوا أنه إن لم يكن اليوم، فغداً: لا نجاة من دون نجاة غزة.

الثمن المهول الذي دفعه أهل غزة – ولا يزالون يدفعونه – قد لا يضاهيه شيء. قصف وتصفيات وتجويع وتعطيش وأمراض... ونحن جميعاً مَدينون لهم بالاعتراف ببطولتهم وصبرهم الذي يفوق العقل. وأول المَدينين هم بالطبع سائر سكان أرجاء فلسطين، سواء من أبناء الأرض المحتلة في 1948، أو من سكان الضفة الغربية والقدس، الذين أحجموا، وغَلّبوا سلامتهم، وأحياناً بعض الامتيازات البائسة، على أية اعتبارات أخرى. كما هم أيضاً أبناء هذه «الأمّة»، التي لن تصير أمّة، قبل أن «تعي ذاتها»، وهو ما لم تقم به منذ زمن، ولم تقم به الآن بوجه المذبحة الجارية

على أرضها. وللتوضيح، فهي صارت أمّة – ما لم تكنه - حين حملت «الرسالة» إلى مجمل البشرية.

أما بعض الغيورين الحزانى على مصير الغزاويين، فأسموا سلوكهم بالخذلان، واعتبروا ذلك اعتذاراً كافياً أو عُذراً! بينما يتطلّب الوضع موقفاً آخر يحمل بعض التضحية، التضحيات. من قبول تنكيل الأنظمة بمن يعترض، إلى التوقف عن الانشغال بالذات واستعراض النجاحات المهنية «الباهرة»، إلى إلغاء إقامة الأعراس وارتياد الحفلات وممارسة السياحة والنزهات، إلى التوقف عن استعراض مآدب الطعام والأزياء (اعتبروا أن لديكم حزناً شخصياً يا قوم: أن قريباً لكم توفي!). وهذا معناه إبداء تضامن مع حزن غزة... وهو أقل الواجب. أن يرى العالم كله غضبنا وحزننا. وإلا فيا لعارنا جميعاً! وهو عارٌ ستترتب عليه حتماً نتائج تخصّ مستقبلنا ومصير أبنائنا... هاكم محاولات أسطول الصمود العالمي. أكثر من 40 ألفاً من أنحاء العالم طلبوا الانضمام إليه، وشخصيات عالمية حملت نفسها فوق مراكبه...

أما لاعب «الثلاث ورقات»[1]، دونالد ترامب، الذي أثبت أنه قادر على التحكم بالحرب الإيرانية-الإسرائيلية، وضبط إيقاعها، والتدخل فيها (دائماً طبعاً لمصلحة إسرائيل، أو على الأقل لمراعاة خاطرها حين لا يتمكن من أكثر من ذلك)، فهو شريك في الجريمة الممتدة التي تجري في غزة منذ عامين، موافِق عليها ومشجِّع لها، بدليل الفيتو الأمريكي المتكرر في مجلس الأمن بوجه الدعوة إلى اتخاذ قرار بوقف الحرب هناك، وبدليل تصريحه الأخير بالموافقة على ضمّ إسرائيل للضفة الغربية.

1- هل يعرف الجميع هذه اللعبة وما ترمز إليه، والتي يمارسها المحتالون البائسون في شوارع مدننا الفقيرة؟

ترامب برغماتي، فإيران دولة إقليمية عظمى، ويمكن الخشية من بعض ما قد تُقْدم عليه، فيراعيها قليلاً. أما غزة فشريط أرضي بائس ومدمّر، وفلسطين خائفة مستكينة. ولا تتدخل الاعتبارات الإنسانية أو القيم التي كان متوافَقاً عليها، وسقطت جميعاً في امتحان غزة، في أحكام وصياغة مواقف ترامب، بل هو علانية ضد تلك القيم بذاتها.. وليس هذا موقف الرئيس الأمريكي فحسب، الصريح والواضح، بل هو موقف كل السلطات الغربية - الاستعمارية - بلا استثناء، التي تمارس الخبث والرياء وتتشدق بما ليس عندها، والتي، حين تفاقمت مذبحة غزة المريعة، واستطالت، استنكرت بخجل، ولكنها لم ولن تفعل شيئاً. والأعذار كثيرة: الاعتداد بموقف السلطة الفلسطينية المُشين، الاعتداد بموقف السلطة المصرية المُشين، ومعهما مجمل الدول العربية النافذة، وبعضها يساند ويدعم إسرائيل عملياً وعلناً في حربها على أهل غزة، بينما بعضها الآخر لم يتخذ موقفاً ضاغطاً عليها، في حين هو يملك أوراقاً جدية للضغط، بل وحتى اللجوء إلى ما هو أضعف الإيمان، أي وقف المبادلات التجارية معها - تجميدها يا قوم - أو تجميد اتفاقيات التطبيع، على سبيل المثال. يا لعارنا! انقلبت الدنيا في المنطقة بعد نكبة 1948. وزالت سلطات، وجاءت سواها بخطابات ونوايا نقيضة لها. أما هنا، فلا شيء. شركاء في الإبادة! يتمنون لو تتحقق اليوم قبل غدٍ، فتُطمَر غزة وناسها، وينتقلون هم إلى الاهتمام بأمور أخرى تخصهم... تافهة بكل تأكيد.

وأما الناس في منطقتنا، فعلى الرغم من مواقفهم المُدِينة لإسرائيل وعدوانها، إلا أن غضبهم لم يتجاوز الحد «المقبول». قد تقمعهم السلطات حين يتجاوزون تلك الحدود، فيعتقَلون أو يُضرَبون أحياناً.. كما إننا لم نرَ بذور تمرد في أي من الجيوش

العربية، أو تهديد به يمكن أن يدفع الساسة المتحكِمين إلى الخشية من تواطئهم إلى هذا القدر مع إسرائيل. ولم نرَ غضباً «عملياً» حيال السلطة الفلسطينية ورموز الخيانة فيها.

إسرائيل جست النبض تدريجياً، جرّبت على عادتها، ورأت المشهد التافه حيال كل ذلك، فصارت منفلتة تماماً من كل عقال، وبزّت النازيين في التفنن بالإجرام، وصارت خطراً، ليس علينا فحسب، نحن أعداءها، بل على البشرية كلها.

ليس من المعقول أن تستمر هذه الحال من الإبادة في غزة. لا من العرب جميعاً، حكاماً وشعوباً، ولا من تركيا وإيران، الغارقتَين تاريخيّاً وعملياً ولفظياً، في المسألة الفلسطينية حتى آذانهما، واحدة تتاجر مع إسرائيل وتسهِّل لها ما تريد، والأخرى تبحث بكل صفاقة، عن سلامتها الخاصة وتُطبِّق مصالحها، وتحتفل «بنصرها» وتكتفي...

يُخيِّم على العالم شبحٌ من السواد الخانق. وثقوا أنه إن لم يكن اليوم، فغداً: لا نجاة من دون نجاة غزة.

النصوص التي جمعها هذا الكتاب جميعها من غزة، وقد كتبها للسفير العربي الكاتب الشاب المتميِّز المقداد جميل مقداد، ليطّلع العالم على ما يجري هناك، ليجعلهم يرافقونه في لحظات حياته، وخوفه على والديه وعلى صغيرته وعلى كل أهله وجيرانه هناك. فلندعُ له بأن ترافقه السلامة، ولندعُ لأهل غزة بان تتوقف هذه الحرب الابادية المجرمة.

«الخيمة زميلة الفلسطيني». العزيز عاطف – فلسطين

2025-09-03

النزوح أو البقاء في غزة.. خياران لموتٍ واحد

نقف الآن جميعاً أمام خيارَيْن، أمام اللحظة الصعبة، بين موتٍ وموت. أسأل نفسي كثيراً على مدار الأسبوع الماضي الذي قضيته في القلق والتفكير والتأمل: لماذا عليَّ أن أعيش في أقلّ من عامَيْن كُل هذه التفاصيل والاختيارات، ليس لشيءٍ إيجابي أو جيّد، وإنما لمجرد أن أعيش. تَكرار المشهد نفسه: إمّا البقاء وإمّا النزوح. مرّةً من غزّة حتى شرقها، ومرةً من الشرق إلى رفح، ومن رفح إلى مكانٍ آخر داخلها، ومرةً أُخرى من رفح إلى الوسط، حيث دُمّرت المدينة.

تقول فيروز: «النهايات مش دايماً سعيدة». كثيراً ما كنتُ أستمع لصوتها وهو يُردد هذه الكلمات. أقول في نفسي: لماذا؟ أتخيّل أن النهايات غير السعيدة، هي تلك التي يفترق فيها الأحبة، وتنتهي القصص في نقطةٍ مأساوية، كما كُنا نراها في المُسلسلات قديماً. الآن يُمكن أن ننظر إلى القصّة بشكلٍ آخر. يُمكن تركيب الكلمات بطريقةٍ مُختلفة. ماذا عن المُدن؟ البلاد التي تهلك وتُباد وتنتهي، يراها عُشاقها تدريجياً تختفي؟. أليست هذه هي النهاية الحقيقيّة، التي يُقال عنها: «مش دايماً سعيدة»؟

تختفي غزّة الآن أمام أعيننا جميعاً. عيون أهلها، نحنُ، الذين نوضع في أصعب موقف، وعيون الناس المُشاهدين في مسلسل الموت الطويل المُمتد لأكثر من عامين.

أعيشُ في المناطق الغربية لمدينة غزّة، وعليَّ الآن المفاضلة بين خيارين، كلاهما موت. إمّا الموت البطيء بالنزوح والهرب نحوَ جنوب القطاع، حيثُ يسعى جيش الاحتلال إلى إخلاء كُلّ السكان سعياً إلى تنفيذ عمليته العسكريّة، التي يُهدّد بها منذُ أكثر من شهر، وإمّا الموت السريع، بالبقاء في مكاننا. نُقصف أو نُحاصَر ونجوع، تُدمَّر البيوت فوقنا، وتقتلنا الروبوتات المتفجّرة، وتفسِّخُ أجسادنا.

نقف الآن جميعاً أمام خيارين، أمام اللحظة الصعبة، بين موتٍ وموت. أسأل كثيراً على مدار الأسبوع الماضي الذي قضيته في القلق والتفكير والتأمل: لماذا عليَّ أن أعيش في أقلّ من عامين كُل هذه التفاصيل والاختيارات، ليس لشيءٍ إيجابي أو جيّد، وإنما لمجرد أن أعيش. تَكرار المشهد نفسه: إمّا البقاء وإمّا النزوح. مرّةً من غزّة حتى شرقها، ومرةً من الشرق إلى رفح، ومن رفح إلى مكانٍ آخر داخلها، ومرةً أُخرى من رفح إلى الوسط، حيث دُمّرت المدينة.

كلنا نتخيّل أن الحياة يُمكن أن تكون صعبة. لكن هل بهذه الصعوبة؟ تتكرّر المشاهد بطريقة بشعة جداً. يتكرّر القلق والخوف والتفكير. تكرار، تكرار، وتكرار. تغفو للحظة على فراشك، بعد الهدنة، فتظُن أنّ كلّ هذا انتهى الآن. الموت أقلّ، والنزوح رُبما صار فكرة مستبعَدة. تمضي الأشهر، فيعود الشبح نفسه من جديد، بطريقة أصعب، شبح كبير، خوف، تهديد، غارات في كُل مكان، مدفعية تقصف، عمليات نسف، قلق، نوم متقطّع، استيقاظات

متكرّرة على صوت الطيران، واهتزاز البيت من عمليات النسف، والقلق الذي يأكلُ الأجساد ببطء.

أعيش الآن غرب المدينة، وجيش الاحتلال يتقدّم من شرقها وشمالها إلى قلب المكان. يحاول الآن دفع الناس إلى النزوح إلى جنوب القطاع. المساحة في الجنوب ضيّقة جدًا، حيث يوجد جيب ساحلي صغير، يمتد من مخيم النصيرات ثم مدينة دير البلح وحتى مواصي خانيونس، وهي بقايا مُدن، وليست مدنًا بأكملها. النصيرات مخيم صغير جداً، يتكون من شارع واحد، ودير البلح مدينة ريفية نقول عنها: «شارعين بس»، ومواصي خانيونس أرض قاحلة جرداء، أراضٍ صحراوية من الرمال التي اختلطت بالصرف الصحي على مدار سنتيْن من الحرب، ولم تعد صالحة للحياة. لكن على الرغم من ذلك، هناك من يعيش فيها.

في هذا الجيب، يعيش النازحون من رفح، ومن خانيونس، ومن المناطق الشرقية لمحافظة وسط القطاع، وجزء غير بسيط نازح من محافظتي غزة والشمال، بعضهم فضّل عدم العودة بداية العام إلى الشمال، وبعضهم نزحَ لاحقاً. فأين سينزح مليون و200 ألف شخص؟ هؤلاء نحن. أين سنذهب؟

من السخرية أن الجيش الإسرائيلي، الذي يُدرك هذه الكارثة ويعرف أنها مشكلة، نشر مؤخراً خريطةً حدد فيها عدداً معيّناً من قطع الأراضي، لا تزيد على 7 قطع، قال: إنه أجرى مسحاً لها، ويؤكد للناس أنّها مناطق صالحة لعيشوا فيها. يُريد نقل أكثر من مليون شخص إلى أراضٍ صغيرة بسيطة، رُبما لن تتسع لربعهم، ويقول ذلك لكل العالم ببساطة وسهولة.

فنّدتْ كثيرٌ من المؤسسات ووسائل الإعلام هذه الخريطة، فبعض

المناطق التي وردتْ فيها، تقع ضمن مناطق يصنفها جيش الاحتلال بـ«غير الآمنة» أو «حمراء» في خرائطه، وكل من يدخلها يتعرض لخطر الاستهداف المُباشِر، وبعضها الآخر منطقة زراعية فيها مزروعات تصعب إزالتها، خاصّة في ظلّ معاناة طويلة من الجوع، ومحاولة بعض الناس الاعتماد على الزراعة للأكل، والبعض الآخر فيه مكب نُفايات - يُريدونا أن نعيش بين النفايات! -، وغيرها هي مناطق مليئة بالركام والدمار، تصعب إزالتها مع عدم وجود مُعدات، إذ يمنعها الاحتلال منذُ بداية العام.

هذا لو قرّرنا أننا سنقبل بالواقع على الرغم من سوئه، وأننا سنحاول تنفيذ ما يحاول الاحتلال ترويجه. لكن الكارثة الأكبر، التي يعرفها العالم كله، أن كلّ النازحين في هذه المناطق، يعيشون في خيام ومخيمات وفي الشوارع. خيمة في الشارع، معها حمام بدائي يتم إنشاؤه بسرعة، وخرطوم للصرف الصحي يؤدي إلى الأرض، ويزيد من كارثة التلوث والأمراض. ويتكرّر النموذج في مئات وآلاف الخيام، في كل المناطق التي تعيش هذه الحال.

العالم يتعامل مع حياتنا في الخيمة كأنّها «شيء طبيعي مفروغ منه»، فيحاول تحسين طبيعة هذه الحياة. مثلًا: يتحدث عن رفض النزوح وخطورته، لأنّ الناس لا يملكون تكلفة النزوح، التي زادت على 1000 دولار للسيارة الواحدة، أو على تكلفة استئجار أرض للنزوح فيها، والتي تزيد على المبلغ ذاك، أو حديثه عن إيجارات المنازل، التي تفوق الألفي دولار أحياناً، عدا حديثه عن عدم توافر المعدات والموارد والخيم والشوادر. بطريقة أُخرى، هو يقول: إنه يقبل نزوح الناس، ويقبل عيشهم في خيمة، فهذا أمر مفروغ منه، لكنهُ يريد تحسين الظروف.. الحقيقة أنّ حياة الخيمة بكلّ ما

فيها، لا تقترب من الحياة البشرية وليس لها معها أيّة صلة. حياة لا تعني سوى الذُل وامتهان الكرامة وقتل روح الإنسان ببطء.

أقف شخصياً أمام مُفترق طرق، بين رغبتي في البقاء، وعدم قُدرتي على تكرار مُسلسل النزوح، وتأسيس حياة جديدة في مكانٍ آخر، حياة تقوم على البدائية البحتة. النزوح المُذل والمُهين، الذي يفترض منكَ أن تعود إلى الدائرة نفسها، والسؤال نفسه: «وين نروح؟».. وسؤالٌ آخر: كيف يُمكن أن تتسع حقيبة لكلّ تفاصيل البيت؟ ماذا نأخذ؟ كيف نحملها؟ وهل سنعود؟ هذه الأسئلة، هي الأسئلة الوجوديّة بالنسبة إلى الإنسان الغزّي اليوم، ولا شيءَ غيرها في ذاكرته.

ولا نزال لا نعرف مصيرنا حينَ نُقرر البقاء ورفض النزوح. فما حدث في حي الصطفاوي وحي أبو إسكندر قبل أسبوع، أكبر مثال للواقع. دخلت الدبابات وقصفت المكان فوق الناس، وأجبرت من بقي على لملمة أغراضه والهرب. يحاول الناس الآن في غزة فرض واقع آخر، فيما يدعو الاحتلال إلى الهرب نحو جنوب القطاع، فيُغادر الأغلب إلى المناطق الغربية، ويمتدون نحو الشمال بدلاً من الجنوب، في مناطق قاحلة وسيئة ومدمّرة أيضاً، لكنهم على الأقل يقولون: لا نزوح إلّا في داخل غزّة، وليس إلى الجنوب. فهم يعرفون احتمالات هذا النزوح الطويل، الذي بقينا فيه لأكثر من عامٍ، ننتظر عودتنا وزوال ممر «نيتساريم» في كانون الثاني/ يناير الماضي.

وفي المقابل، ينزح عدد آخر من الناس جنوباً، فالخوف والهرب هُما مصيرنا، يبحث بينهما الناس عن محاولة قصيرة للأمان... وجميعنا يعرف، أن الموت هنا وهناك، لكن احتمالاته في كلّ مكان تبدو أحياناً أضعف أو أقلّ.. ورُبما هو تأجيلٌ مؤقّت للموت فقط.

فرات شهال الركابي - لبنان

2025-08-21

«الكاش»... واحدة من الأزمات الغزّاوية القاسية

ما يوجد في غزّة من أموال لا يتغير، لا يدخل ولا يخرج، ويبقى كما هو. وهو ما يعني فصل القطاع عن أيّة منظومة مالية خارجية، وإبقاء ما فيها يدور بينَ الناس.

غرقت الأسواق بالبضائع، أشكالاً وألواناً، بعد عودة دخولها إلى غزّة في الأيام الأخيرة عبر التجار، بعد أن فشلت المُساعدات في انتشال الناس من كارثة المجاعة، لسرقتها ونهبها من لصوص الحرب. في أيامٍ قليلة بدأ سعر البضائع بالانخفاض، وهو شيء طبيعي مع زيادة أعداد الشاحنات اليوميّة، على الرغم من أنها لا تصل إلى المطلوب، فيما يبقى جزءٌ من الناس، مَن ليسَ لهُم دخل، غير قادرين على شراء أيّ شيء.

نحنُ أيضاً، مثلهم، نكاد لا نستطيع شراء شيء. نحنُ الذين لدينا مصدر دخل، ولو كان قليلاً وبسيطاً، من أعمالنا التي حاولنا الحفاظ عليها مع بداية الحرب، ومع دخلٍ لا يفعل الكثير في هذه الظروف. لكن المفاضلة بين المساوئ هي عادةُ الحرب.

وصلنا الآن إلى معضلةٍ أُخرى، ونحن كشعب تحت الحرب نمتهن أيضاً خلق المشكلات لأنفسنا، وزيادة الأزمات علينا. قد يكون السبب إسرائيلياً أحياناً، ويكون في أحيانٍ أخرى محلياً، حينَ نفتعل المزيد، مثلَ أزمة «الكاش»، أو سحب الأموال النقديّة، التي أرهقت الشعب على مدار الأشهر الأخيرة، ووصلت قبل أسابيع إلى الذروة، وهي أزمة تعود بطبيعة الحال إلى شكل المُعاناة التي تعيشها غزّة. فإلى جانب الحرب الإبادية يعاني القطاع من ضيق مساحته وانغلاقه من كُل الجوانب.

تكمُن الأزمة الرئيسية، لمن لا يفهمها ولا يعرفها، في أنّ غزّة، المحاصَرة الصغيرة، فيها كمية محددة من الأموال النقدية، سواء تلك الموجودة في البنوك أو الموجودة في أيدي الناس، من مواطنين وتُجّار وباعة ومؤسسات وغيرهم. وفور إغلاق القطاع وبداية الحرب، انحصرت الأموال وضخّها للقطاع بهذه الأعداد «المحدودة». أيّ أن ما في غزّة من أموال لا يتغير، لا يدخل ولا يخرج، ويبقى كما هو، وهو ما يعني فصل القطاع عن أيّة منظومة مالية خارجية، وإبقاء ما فيها يدور بينَ الناس.

أُغلقت البنوك في غزّة منذ اليوم الأوّل للحرب، ثم انسحبت كلّ البنوك من مناطق شمال القطاع في اليوم السابع، بعد إعلان الاحتلال عن إخلاء المناطق الشمالية كلّها إلى الجنوب، واعتبارها منطقة قتالٍ خطيرة. إثر ذلك، سحبت البنوك كلّ أموالها من فروعها في مدينة غزّة. وعلى الرغم من سوء الأمر على القلة الباقية في الشمال، إلّا أنهُ كان تدبيراً جيداً، لأن الاحتلال قام بتدمير كلّ فروع البنوك وحرقها في بداية الحرب، وبالتالي فانسحابها أنقذ المبالغ القليلة التي كانت فيها.

يُبقي أهالي غزّة ويحبون إبقاء أموالهم بين أيديهم، خارج البنوك، ولا يَأمنون لهذه المؤسسات المالية المرتبطة بالمنظومة الإسرائيلية، ثم بالمنظومة العالمية، إمّا لأسبابٍ دينيّة تُحرِّم التعامل معها، وإمّا لأسبابٍ تتعلّق بعدم ثقة الناس في هذه المنظومة، وخاصة كبار التجار، الذين يفضّلون التعامل اليدوي بـ«الكاش».

هُنا، وعند حاجة كثير من الناس الذين يحتفظون بأموالهم في البنوك، أو الذين تُضاف رواتبهم مطلع كلّ شهر إلى حساباتهم البنكية، إلى السحب والحصول على أموالهم يدوياً («كاش»)، ومع صعوبة الوضع نتيجةً لإغلاق البنوك، وعدم تجدّد الأموال بإدخال كمياتٍ منها من الضفة الغربية، ظهرت مهنة جديدة، تحوّلت لاحقاً إلى أزمة تزيد من المعاناة على الناس، وهي مهنة «التكييش»، أو مهنة «سحب الأموال».

تقوم المهنة ببساطة، على وجود أشخاص يمتلكون الأموال النقدية بكثرة، ويمتلكون معها حساباتٍ بنكية، فيُقدمون خدمة لمن يحتاج إلى الأموال يدوياً، بإعطائه مبلغاً مالياً «كاش»، ويستعيدون ما أعطوه من حسابه البنكي، لكن، مع أخذ نسبة عمولة كبيرة.

أذكر حين كنتُ نازحاً في رفح، كان المبلغ المستقطع قد بدأ باثنين في المئة، وأحياناً كان يصل إلى 5 في المئة، من قيمة المبلغ المسحوب. فمُقابل كلّ 1000 دولار ستسحبه، ستدفع زيادة 20 دولاراً مثلًا. هذه كانت البداية، التي نظرنا إليها بألم، فالمبلغ كبير مقارنةً بما نسحبه. إلّا أن هذه لم تكُن سوى البداية..

لاحقاً تضاعف المبلغ، خاصة مع استمرار الحرب، وامتناع المؤسسات المعنية عن إيجاد حل، أو محاولات السياسيين والسلطات المختصة إيجاد فرصة لإدخال الأموال إلى القطاع أو استبدال ما فيها. على

مـدار أشـهر الحـرب زادت الأزمـة، بوصـول نسـبة «الضريبـة» عـلى السـحب أحيانـاً إلى 10 في المئـة، ثم 15، ثم 20 في المئـة، ووصلـت قبـل شهر، مع تفشّي المجاعة وعدم وجود البضائع إلى 50 في المئة وأكثر.

ببسـاطة، كي تحصـل عـلى أموالـك، سـتدفع نصفهـا لخالقـي الأزمـة وأصحـاب امتهـان كرامـة النـاس واسـتغلالهم. تحـوّل «التكييـش» إلى مهنـة اسـتغلاليّة خلقتهـا الحـرب، فمقابـل حصولـك عـلى 100 دولار مـن حسابك البنـكي في يـدك، سـتدفع 100 أُخرى للتاجـر الـذي اسـتولد الأزمـة، أي أنـك سترسـل لـه 200 دولار إلى البنـك، وتحصـل مقابلهـا عـلى 100 يدوياً.

ارتبطـت الأزمـة بأزمـاتٍ أُخـرى بشـكلٍ فاحـش. مثـلًا، حـين دخلـت بضائـع التجـار إلى غـزة وكان التجـار يدفعـون بضائعهـم عـبر التحويـل البنـكي، كانـت نسـبة العمولـة أقـلّ، فجـزء مـن التجـار يتعامـل بالحـوالات البنكيـة، مـا يعـني أنّ النـاس سيتعاملون بهـا أيضاً، وهنـا تقـل الحاجـة بعـض الـشيء إلى المبالـغ «الـكاش»، إلا حـين تشـتري شيئًا لا يمكـن شراؤه عـبر البنـك. وحـين تفشّـت المجاعـة والأزمـة قبـل شهر، تفشّـت معهـا أزمـة السـيولة و«الـكاش»، ووصلـت إلى ذروتهـا.

خفّـت الأزمـة الآن قليـلاً مقارنـةً بمـا كانـت عليـه قبـل أسـابيع. لكنهـا تبقـى قائمـة، فقـد وصلـت نسـبة العمولـة اليـوم إلى 30 في المئـة. وكلمـا تخيّلـت نفسـي أدفـع 30 في المئـة مـن مبلـغ شـخصي أريـد مـن خلالـه إطعـام أُسرتي أو شراء شيء أحتـاج إليـه، أكاد أُجـنّ. هـؤلاء يُقاسموننـا أموالنـا، ببسـاطة، لا يوجـد شيء يصـف الأزمـة أكـثر مـن ذلـك.. نحـنُ نتعـب، وهـم يربحـون مـن تعبنـا.

بالتأكيـد تبعـات هـذه الأزمـة كبـيرة. مثـلًا، كلّ شـخص سيسـتقبل مبلغـاً ماليـاً مـن الخـارج، سـيدفع مبالـغ مضاعفـة، منهـا نسـب عمولـة

التحويل الخارجي حتى الوصول إلى غزّة، وهي نسب زادت بشكل كبير جدًا في فترة الحرب، خاصة مع توقّف منظومة «ويسترن يونيون» وشبيهاتها عن التحويل إلى غزّة، وتضييقات البنوك والمَحَافظ الإلكترونية، وزيادة العمولات على أية طرق التفافيّة أُخرى يسلكها الصرّافون.

كثير من سكّان غزة الذين يمتلكون أموالاً في حساباتهم البنكية، هي «تحويشة العُمر» بالنسبة إليهم، تركوها لزواج أولادهم أو لضمان التدبر عند سوء الوضع، وبعضهم يراها اليوم مساعِدة لهم في الاستمرار بالحياة، في ظلّ عدم توافر فرص العمل، ويشاهدون أموالهم ومخزونهم المالي ينتهي.

يضيع اليوم «القرش الأبيض» المُخبّأ «لليوم الأسود» ويُستنزف أصحابه، أمام طاولات ومحلات الصرافين وأصحاب مهنة «التكييش». يدفعون الكثير كي يحصلوا على القليل، فقط لشراء الطحين أو شراء بعض حبات الخضار القليلة التي ستُطعم عدداً كبيرًا. يأكل الناس ويحصلون على أموالهم، وفي خانةً أُخرى تُستنزف حساباتهم البنكية، فالمبالغ التي في أيديهم، دفعوا أضعافها للحصول عليها.

الأزمة الأخرى المنبثقة عن هذه الأزمة، وهي مخلوقة فلسطينياً محلياً بشكلٍ خالص.. أزمة العملات النقدية وانتقائها. صار الناس يرفضون تداول العديد من أنواع العملات النقدية، لأسبابٍ هي حتى اللحظة ويا للسخرية، غير معروفة. بدأت القصة قبل سنة من الآن، مع أزمة الـ«10 شيكل»، وهي عملة معدنيّة. فجأة قرر بعض التجار رفض استقبالها والتعامل بها. يتفحص بعضهم العملة قبل أخذها، وبشكلٍ غريب لا تعرف السبب، وما الذي يتفحّص فيها.

ما مُحددات القبول أو الرفض، وما الشكل المطلوب؟ هل فيها نقرة هنا أو هناك؟ أم لها لون لا يُعجبه؟ مزوّرة أو غير مزّورة؟ ثم انتقلوا إلى مرحلة متطوّرة. أعلن الجميع فجأةً عن رفض التعامل بمبلغ الـ10 شيكل المعدنية.

بقيت الأزمة بهذا الشكل، حتى قرّر خالقو الأزمات، ابتكار أزمة جديدة، أو انبثاق مشكلة أخرى عن أزمة العملات الموجودة، وهي أزمة الـ«20 شيكلاً» الورقيّة. صاروا يدقّقون بدايةً في كل ورقة يأخذونها، يدققون كثيراً. ينظر الواحد منهم في الورقة ويتفحصها كأنه يقوم بـ«صورة أشعة»، كما يسخر الناس من الأمر في الشارع. يتأكد من عدم وجود أي تمزّق أو خرق في الورقة أو في أطرافها. كلّ ورقة ممزّقة، أو فيها نتوءات، أو مهترئة وذائبة من كثرة الاستخدام، تُرفض بشكلٍ كامل، وتطور الأمر إلى كل العملات الورقية الأخرى، ومنها: 100 شيكل، 50 شيكل، 200 شيكل.

تصاعد الأمر الآن حتى وصل إلى رفض قبول أيّة ورقة من فئة 20 ، باستثناءاتٍ قليلة تكون فيها جديدة جداً ويظهر لونها المميَّز، أمّا غير ذلك فيرفضها البائع أو التاجر تلقائيّاً لتنضم الفئة إلى زميلتها من فئة الـ10 شيكل.. نخلق الأزمات، ونُصرّ على زيادتها، كأننا لا نكتفي بالحرب أو الموت.

مع غياب أهم فئات العملات من التداول، وهي 10 و20 شيكل، وهي فئات منخفضة القيمة يُمكن التعامل بها بشراء الأشياء البسيطة، مثل بعض الخبز أو المياه أو المواصلات، صار التعامل اليومي بالأموال أصعب للغاية. وهنا ظهرت أزمة «الفكّة» أو «الفراطة». أذهب في أوقات كثيرة للشراء، ومعي عملة من فئة 100 شيكل أو 200 شيكل بجودة عالية، فيرفض البائع البيع

والتعامل بها، تحت حجة: لا يوجد فكّة!

صار الذهاب إلى السوق مهمة صعبة بحد ذاتها. كانت مهمة صعبة في ظل المجاعة وعدم وجود شيء تشتريه، والآن صارت أصعب. فالطعام أمامك والخيارات بالرغم من بساطتها وقلتها، متوافرة، لكنك تشعر أنّك بلا كرامة، فحتى أموالك التي في يدك لم يعُد لها قيمة. لو كانت عُملة كبيرة، فهي غير مقبولة لأن البائع يُريد الفكة، وإن كانت من فئة قليلة، فهي لا تُعجبه، لخدش أو تمزق بسيط على الطرف، وقرر وفق خبرته الاقتصاديّة والمالية والاجتماعية والسياسيّة أنها غير مقبولة.

وقفتُ مؤخراً أمام بائع رفض التعامل مع الـ20 شيكلا، فذهبت إلى آخر وتعامل بها. أشعرني أنّ التعامل بها يتم بحذر شديد. قال: «والله ما باخدهم بس مرّات بحب أسهّل على الناس»، قُلت له: «شايف. لو انت بتاخد وانا باخد، وكل البياعين والناس بتاخد، كلّ العملات بتمشي وبتتسهل وما بيكون في أزمة». لكنني أعرف، نحنُ من يخلق الأزمة. تبدأ ببائع واحد ثم آخر ثم غيره، يرفضون التعامل بها. تلقائياً أنا بصفتي مشترياً أرفض التعامل بها، لأنها ستبقى في يدي ولن يأخذها أيّ بائع آخر، وهكذا تنتقل الأزمة إلى بائعٍ آخر ومشترٍ آخر حتى تصير فكرة عامّة، وقاعدة يمشي عليها كلّ الناس.

سلطة النقد الفلسطينية أعلنت مسبقاً، وكذلك أكد بنك فلسطين، أكبر البنوك المحليّة، ألّا حظر على التعامل بأية فئة من فئات العملات، وحتى الورقية المهترئة والممزقة، باعتبار أن رقمها التسلسلي موجود وظاهر، إلّا أنّ الناس لا تقتنع ولا تعمل بأيّة من هذه البيانات، لعدم وجود سلطة أو إدارة تتحكّم وتضبط

الأوضاع سواء في الأسواق أو مع المؤسسات أو التجار.

هذا الانفلات الذي خلقته الحرب، والفراغ الإداري والسياسي والأمني، أوجد مزيداً من الأزمات على الناس، فما يظهر وما هو معروف هو فحسب أخبار القصف وأعداد الشهداء... ولن يُضبط ذلك ولن تتوقف دوامة المُعاناة الطويلة إلّا بشيء واحد: وقف الحرب الآن، وقيام حكومة تتفرّغ لحلّ الأزمات التي يُعاني منها الناس: حياتهم في الخيام، معاناتهم مع المياه والطعام والأمراض، والإصابات والإعاقات...

هذه غزة! للصحافي والمصور الفلسطيني المبدع، أنس الشريف، الذي استشهد يوم 10 / 08 / 2025: : لن ننسى ولن نسامح

2025-08-11

غزة.. أمنية أخيرة لمحكوم عليه بالإعدام

أسهمت بضائع التجار في كسر احتكار اللصوص. وعلى الرغم من أنني استغرب من حديثي عن هذا الأمر بشكلٍ طبيعي، لكن الطبيعي في ظلّ الحرب يتحوّل إلى شاذ، فيما تطفو على السطح الشوائب التي تسود المُجتمع، وتتحوّل إلى نمطٍ يومي واعتيادي. هذا ما نعيشهُ في غزّة: نُفاضِل بين احتكار التُجار واحتكار اللصوص. وهي بالتأكيد سياسة يسعى الاحتلال إلى ترسيخها، لإضعاف المُجتمع وإذلاله أكثر.

تمُرّ دانية ابنة أُختي يومياً على بيتنا، أسألها كلّ مرة إذا ما تناولت الفطور أم لا. هذه المرّة سألتها، وقالت إن أهلها أكلوا، لكنها لم تأكل. لم أفهم السبب، ومباشرةً أعددنا لها سندويش من الجبنة والزعتر، وهي مكونات بسيطة للغاية، لكنها لم تعد موجودة في البيوت الغزيّة في الأشهر الأخيرة، مع تفشّي المجاعة. كنتُ قد حاولت إبقاء الكمية القليلة الباقية منها، لأطول فترة ممكنة. توقفنا كلّنا عن تناولها، مقابل بقائها لأجل سلوان، طفلتي الصغيرة، كخيارات للطعام، في ظلّ عدم توافر طلباتها اليوميّة التي لا تنساها، مثل البيض والدجاج.

بعد يومَيْن عرفت أن دانية، تعمّدتْ في ذلك اليوم عدم الأكل في بيتها، فأُمها التي لا يتوفّر لديها سوى «الدُقّة» الغزاويّة[1]، لا تُطعمهم غيرها في سندويشاتٍ صغيرة. تعمّدتْ دانية عدم الأكل، والحضور إلينا. قالت لأمها إنها فعلت ذلك لعلّ أحداً من أخوالها، أي نحن، أنا وبيوت إخوتي وأهلي، يسألها إن كانت قد أكلت في البيت أم لا، وفي حال ردّت بالسلب، سيُعرض بالتأكيد عليها خياراً جيداً من المخزون البسيط الباقي، مقارنةً بخيار أُمها المستهلَك وغير اللذيذ.

فوراً، قُلت لدانية بعد ذلك، تعالي غداً ، سنُقيم سُفرة فطور خاصّة من أجلكِ. عادةً نأكل جميعاً سندويشاً صغيراً كلّ صباح، بهدف توفير الخبز القليل، والمخزون الموجود من الطعام، ضمن خطّة يقوم بها كلّ من يملك باقي الطعام في غزّة، كي يصمد لأطول فترة مُمكنة. أمّا أولئك الذين نفدت لديهم الخيارات، فبالتأكيد سيقضون الصباح في البحث عن شيء لأطفالهم يسُد جوعهم.

جاءت دانية، أكلت البطاطا، الجبنة، الزعتر والزيت. أكلت كثيراً، وبقيت طويلاً، أسألها كلما نفدت الصحون، إذا ما كانت تُريد المزيد، فترُد بالإيجاب، حتى شبعت بالكامل.

في اليوم السابق لهذا الحدث الاستثنائي في حياة دانية خلال هذه الأشهر، كان العيد قد حلّ على غزّة. مشيتُ في الشارع، كان كُل الناس يُسكون عُلب الجبنة المصنّعة، أو جبنة «الفيتا» المصريّة، التي غابت عن منازل غزّة لأشهر، مع نفاد كمياتها من القطاع، وغلاء الكمية القليلة الباقية لما يزيد على 20 دولاراً للقطعة

1 - الدُقة الغزاوية: مزيج مطحون أساسه حبوب القمح والسماق والفلفل الأحمر، وتُخلط بالزيت. هذه المواد لا تتوافر بسهولة، وسعرها مرتفع، لكنها أرخص من الزعتر، الذي وصل ثمنه إلى أكثر من 100 دولار للكيلو!

الواحدة، وهي التي لا تكاد تكفي عائلة لنصف يوم.

كُل الناس أيضاً كانوا يحملون السكّر، وبعضهم التمر، والمؤكد أنّ الجميع اشترى الطحين. ليس الجميع بالضرورة، فليست كلّ عائلات غزّة تستطيع توفير المبالغ البسيطة جداً التي عُرِضت بها بعض البضائع. ولفهم هذا الأمر، يجب أخذ نظرة على الأسعار سريعاً، خصوصاً لِما توفّر في يومٍ واحد للناس.

بلغ سعر الكيلو من الطحين في ذلك اليوم من 10 إلى 18 شيكلاً، فيما سعر الكيس الكامل الذي يحتوي 25 كيلو، كان يبلغ سابقاً 20 شيكلاً فقط. أي سعر الكيلو اليوم، بسعر الكيس سابقاً، لكن الناس اعتبروه إنجازاً، بعد أن بلغ الكيلو الواحد في الأسابيع السابقة، ما يزيد على 100 الى 200 شيكل، وصولاً إلى أسعار متفاوِتة... أمّا السكر، أبو خمسة شواكل، والرخيص جداً في غزّة، والمتوفّر في كلّ بيوتها في الحياة العادية، فقد زاد على 400 شيكل في الأيام الأخيرة، وفجأةً، وبعد دخول بضائع التُجار، وصل إلى 50 شيكلاً، وهو ما اعتبره الناس عيداً لهم.

قطعة الجبنة الصغيرة، التي احتفلَ الناس بها، وصاروا يحملونها لتزيّن منازلهم، وليأكل كلّ أهلها في هذا النهار الجبنة بكلّ أشكالها، كان ثمنها لا يزيد عن اثنين شيكل فقط، وفي الأسابيع الأخيرة زادت عن 70 شيكلاً، أمّا الآن فهي تتراوح بين 10 إلى 15 شيكلاً، وهو ليس إنجازاً بالنسبة إلى مئات الآلاف ممن لا يملكون قوت يومهم، بلا فرص عمل، ولا رواتب، ولا حتى سيولة لسحب الأموال، بعد عامَيْن من الإبادة.

أعلنتْ إسرائيل مؤخراً عن السماح بدخول بضائع التُجار، حيث يستطيع كلّ تاجر في غزة شراء بضائع من الضفة الغربية ومصر

والداخل المُحتل، وإدخالها إلى غزّة عبر المعابر، لتُباع بأسعار مختلفة، وهو شيء مختلف عن المُساعدات التي يُفترض توزيعها على السكان مجاناً. هذه الخطوة أسهمت في تحريك السوق الغزّي ومساعدة الناس. فعلى مدار أسبوعيْن كانت المساعدات تُسرق بالكامل، في ظل «هندسة الفوضى»، التي يعمل عليها الاحتلال، حيث يَمنع تأمين حراسة المُساعدات، ما يدفع اللصوص والمافيات إلى سرقتها، وبيعها بأسعار خيالية، ويجعل هؤلاء يتحكّمون بالسوق.

أسهمتْ بضائع التجار في كسر احتكار اللصوص. وعلى الرغم من أنني استغرب من حديثي عن هذا الأمر بشكلٍ طبيعي، لكن الطبيعي في ظلّ الحرب يتحوّل إلى شاذ، فيما تطفو على السطح الشوائب التي تسود المُجتمع وتتحوّل إلى نمطٍ يومي واعتيادي. هذا ما نعيشهُ في غزّة: نُفاضِل بين احتكار التُجار واحتكار اللصوص. وهي بالتأكيد سياسة يسعى الاحتلال إلى ترسيخها، لإضعاف المُجتمع وإذلاله أكثر.

سَمح الأمر بدخول أنواع مختلفة من البضائع. السكر، الطحين، التمر، القهوة، وأشياء أُخرى وعد التجار بها، مثل الخضار والفواكه والدجاج. انتظرها الناس، مترقبين دخولها بأسعار خيالية، أمام استمرار «هندسة التجويع» التي يرسِّخها الاحتلال. فالتجار، إلى جانب جنوحهم إلى الاستغلال البشع، يدفعون مبالغ طائلة مقابل وصول البضائع إلى الناس، أولها، تأمين البضائع من خلال عناصر غير فصائلية، وهو ما يحتاج إلى مبالغ خيالية، ولكنه يَحول دون استهدافهم من قبل الاحتلال لعدم انتمائهم إلى حماس أو غيرها من الفصائل، ثم أسعار تنسيقات دخول البضائع من المعابر

الإسرائيلية، وهو ما يرفع أثمانها، فتصل البضائع إلى سكان غزة بأسعار تتراوح بين 5 إلى 10 أضعاف الثمن الأصلي، الذي كان قبلَ الحرب.

المُهم، وهو ما يقوله الناس، إن هذه البضائع كسرتْ احتكار اللصوص، وأسهمت في كسر الأسعار بشكلٍ لافت، فهي في يومَيْن انخفضت سريعاً.

احتفى الناس في غزّة بعُلب الجبنة. احتفاليّة كبيرة بشيءٍ بسيط وخفيف جداً، حتى أنه غير مُغذٍ صحياً، لكن يبدو أن تغيير مذاق الفم يحتاج إلى فرحة خاصّة. نشر كثيرون صوراً لسندويشات الجبنة إلى جانب كأس الشاي المُحلى بالسكّر، بعد وصول الصنفيْن البسيطيْن اللذين غابا عنهم طويلًا. كتبتُ على حسابي في تويتر: «كل هاد الاحتفال على جبنة وسكر يا غزازوة، كيف لو شربتوا قهوة؟». هذا، وسعر القهوة في غزّة تحول من 14 شيكلاً لربع الكيلو، إلى 500 شيكل، فصار فنجان القهوة ضرباً من الخيال في هذا المكان.

كُنتُ قد وعدتُ سلوان باحتفال خاصّ بعيد ميلادها الثالث. سنُقيم حفلة. قُلت لها ذلك قبل أكثر من شهر، حين توقعنا جميعاً أن هناك اتفاقاً مرتقباً لوقف إطلاق النار بعد أيامٍ قليلة. قُلتُ سيبدأ الاتفاق وستدخل البضائع، وإلى حين وصول تاريخ ميلادها (14 آب/ أغسطس)، سيكون الاستقرار قد ملأ الأسواق بالبضائع وصارت أسعارها في متناول اليد، مع توافر كل احتياجات عيد الميلاد. لم يحدُث ذلك، لكن قرار الاحتلال دخول المُساعدات رُبما أسهم في التخفيف من تأزم حالة السوق. فقُلت سنُقيم الحفلة.

تنتظر سلوان عيد ميلادها على أحرّ من الجمر. تقول بشكل

مُستمر إنها ستستضيف أبناء عمّاتها وأعمامها، سيحتفلون ويُغنّون. طلبتْ أن نُحْضر مهرِّجاً تُشاهده على يوتيوب بشكلٍ دائم كضيف في الحفلة، والصدفة أن هذا المُهرِّج من عائلتي. اتصلتُ به، وطلبت منه الحضور لحفلة عائلية بسيطة، وبمُقابل مادي، كأنها فعالية خارجية يؤديها في عمله، وافق، واحتفلت سلوان احتفالًا كبيراً في انتظار الحفل الأكبر.

جاء قرار احتلال مدينة غزّة ليكسرَ فرحة الناس، لكنها لم تنكسر. صادق الكابينت الإسرائيلي على القرار كخطوة لاحتلال كامل القطاع، حيث يبدأ ذلك باحتلال مدينة غزة، وتهجير سكانها من جديد نحو الجنوب، قبل حصارها ثُم دفع من تبقى للاستسلام أو القتال. قُلنا لن نخرج. هذه المرة لن نخرج، سنموت أو نعيش، لا خيارات أُخرى. كُلنا خائفون، لكننا نأكل ونأكل، نؤجّل الألم المرتقب إلى ما بعد أكل الجبنة، ونغضّ النظر عن الخوف، بانتظار شاحنات البضائع التي وعدونا بها، فالناس تنتظر أحد مصيريْن: التهجير والموت، أو أكل الدجاج واللحوم.

لا شكّ في أن الناس يحتفلون بانتصارهم الصغير بالوصول إلى الطعام، ولو على بساطته - وهو تنويه ضروري يجب دائماً أن نقوله كي لا يظن العالم أن المجاعة انتهت - والناس في الوقت نفسه يدركون في دواخلهم، أن هذه المُساعدات هي أشبه بتحقيق الأمنية الأخيرة للشخص المحكوم عليه بالإعدام!

العزيز عاطف - فلسطين

2025-07-31

مساعدات لـ«إنقاذ الحرب»

لا أستطيع أن أرى في هذا المشهد، وهذه المساعدات، إلّا أنها إنقاذ للحرب، إنقاذ لكلّ الأطراف. أولاً لإنقاذ الحرب من فكّ الاعتراض الدولي والأصوات المستنكِرة، ثانياً لإنقاذ إسرائيل من جريمة التجويع، والولايات المتحدة من جريمة الدعم المطلق لها، والدول العربية والأوروبية من جريمة الصمت المتواطئ وعدم التحرك. إنها الفرصة الخالصة لكلّ الأطراف المُشارِكة في الجريمة، لتخفيف العبء عن أكتافها، وممارسة الإبادة كفعلٍ صامت.. وبسيط.

في لحظةٍ واحدة، وبينما يغمُرنا اليأس ويُغرقُ أجسادنا بعد إعلان المبعوث الأمريكي، ستيف ويتكوف، عن فشل مفاوضات وقف إطلاق النار وصفقة تبادل الأسرى، انقلبَ كلّ شيء سريعاً. أعلنتْ إسرائيل عن قرار دخول المساعدات إلى قطاع غزّة بلا حدود، ومن دون أيّ مقابل، مضيفةً عليه قرار وقف إطلاق النار «الإنساني» من جانبٍ واحد، في ساعاتٍ مُحددة ومناطق مخصّصة.

تبع القرار إعلانات من مصر والإمارات والأردن ودولٍ أخرى، عن تسيير رحلات إسقاط للمساعدات فوق القطاع، لإنقاذ الناس

من المجاعة.. إنقاذهم من المجاعة المُستمرّة منذُ أربعة أشهر. بعد أربعة أشهر، يأتي الإنقاذ.. هذه إعادة للنص بشكلٍ آخر، في حال لم يكُن الأمر مفهوماً. هُنا تتجلّى الإنسانية بكلّ مفاهيمها، خاصة بعدما خرجَ الرئيس الأمريكي دونالد ترامب ليقول إنّه تحدّث مع نتنياهو - وكانت محادثة صعبة - بعد مشاهدته صور الأطفال الجوعى والأجساد المهترئة من سوء التغذية. نعم، هُنا تتجلى الرحمة والرأفة، وهنا تظهر الإنسانيّة بأبهى حُلة، وأفضل طريقة. نعم.

أثارت القرارات التي جرى ترويجها بشكلٍ ضخم، في حفلةٍ كُبرى شاركت فيها كُل الجهات، الفرح لدى الغزيين. قد أقول إننا للمرّة الأولى منذ أشهر، ننام بسعادة، لا لأننا أكلنا، ولا لأننا شاهدنا شاحنات المُساعدات تخترقُ الحدود، بل لأننا نتعّلق بالأمل دوماً، وننتظر الآن من العالم أن يرأفَ بنا، فيُطعمنا قليلاً، طالما أن الخيار الآخر الأفضل، مؤجّل، أو معلّق مؤقتاً، وهو خيار إنهاء الحرب.

اندفعَ الناس إلى تداول أخبار المساعدات بشكلٍ لافت، منتظرين التنفيذ، خاصة مع تعدد المنافذ، ووجود فرصة لتأمين المساعدات بشكلٍ كامل، لمنع وصولها إلى يد اللصوص، وضمان وصولها إلى مخازن المُؤسسات، ما يعني حصول الناس بعدالة عليها، بالإضافة إلى قرارات إدخال البضائع للتجار، وهو ما يسمح بدخول «الرفاهيات» الأخرى (الدجاج، والحلويات مثلاً)، ويعتبرها الفلسطينيون حقاً رفاهياتٍ الآن، مقارنةً بمنعهم من الحصول على الطحين.

في الصباح الأوّل لإعلان القرار، أعلن جيش الاحتلال عن هدنةٍ «إنسانية»، أو وقف مؤقت للأعمال العسكرية، يشمل مدينة غزّة (أو المناطق الباقية منها بلا احتلال)، ومواصي خانيونس، والمناطق

الغربية من محافظة وسط قطاع غزّة، وهي شريط صغير ضيّق جداً يتكدّس فيه الناس منذ أشهر، فيما يستمر القصف والموت وعمليات النسف المتلاحقة في المناطق الأخرى، التي يحتلها جيش الاحتلال ويُمَنَع الناس من الوصول إليها.

ظهرت صور شاحنات المساعدات والقوافل الكبرى، وهي تتحرّك عبر معبر رفح ومعبر كرم أبو سالم، وبدأ الترويج الإعلامي الضخم لهذه الخطوة الانتصاريّة العظيمة، قبل أن يُعلن الهلال الأحمر المصري عن عملية «زاد العزة من مصر إلى غزة»، لدخول المُساعدات، فيما أعلن جيش الاحتلال عن سعيه إلى تحسين «الاستجابة الإنسانية»، في غزة من خلال قراراته الأخيرة.

حفلة، إنها حفلة فعلاً، يُشارك فيها الجميع، وانضم إليها كل من له علاقة ومن ليس له علاقة. حفلة، على أنقاض غزّة، وأشلاء أطفالها الذين استشهدوا في الساعات الأخيرة قبل الإعلان عن دخول المُساعدات. ليست حفلةً بريئة، بقدر ما هي ممنهجة، هدفها واضح، تمييع الإبادة وإعطاء شرعية لها، وهو ما قاله الإعلام الإسرائيلي بوضوح. أعلن مسؤول إسرائيلي، وفقًا لقناة كان الرسميّة، عن أنّ قرار دخول المُساعدات يأتي بسبب الضغط الدولي، حيث تهدُف الهدنة الإنسانية إلى منح الولايات المتحدة «هامش تحرك» للدفاع عن إسرائيل في المحافل الدولية، نظراً لكونها تُعتبر مسؤولة عن تدهور الوضع الإنساني في القطاع. هكذا ببساطة يبدو المشهد. هي فرصة لتخفيف الثقل الدولي عن إسرائيل والولايات المتحدة، بعد مشاهد المجاعة التي نجحَ إعلاميو غزة في فضحها وكشفها ونشرها للعالم، وفشل متحدثو الجيش الإسرائيلي وأبواقه في دحضها.

جاءت القرارات أيضاً بعد أيامٍ كثيرة من الضجة الإعلامية، ضد عددٍ من الدول العربية والأوروبية.. مصر والأردن مثلًا.. الأولى، خرج متضامنون لإغلاق سفاراتها في كلّ دول العالم، مع استمرار إغلاق معبر رفح، وللمطالبة بتحركها العاجل لوقف المجاعة، والثانية بعد ترويج بعض هيئاتها لوجود قوافل من المساعدات التي تدخل منها إلى القطاع، من دون تغيّر حقيقي على الأرض. أي أكاذيب إعلامية.. وإلى جانبهما طبعاً، الدول الأوروبية التي روجت مسبقاً لاتفاقية مع إسرائيل، من دون حدوثها مطلقاً.

يظهر من هذا الإعلان عن هدنة «إنسانية» ودخول المُساعدات، أن إسرائيل تبحث عن بدائل للمفاوضات التي تُلقي اللوم على حماس لتعثرها، وهي فرصة جديّة لإطالة أمد الحرب، وجعلها مشهداً عادياً وطبيعياً في الحياة اليوميّة للفلسطينيين.

مناطق محددة وشريط ساحلي صغير يعيش فيه الناس، مُقابل أكثر من 70 في المئة من الأرض تحتَ الاحتلال والنسف والقصف المُستمر، كُل من يدخلها مُستهدف و«إرهابي». بهذا الشكل لن تخرج الأصوات العالمية لتُدين الحرب، فهي مُستمرة بشكلها الطبيعي، وبدلاً من أن نقتل 100 شخص في اليوم الواحد، ببساطة، نقتلهم في ليلتيْن بين الثامنة مساءً والعاشرة صباحاً (أوقات بلا هُدنة).

لا أستطيع أن أرى في هذا المشهد، وهذه المساعدات، إلّا أنها إنقاذ للحرب، إنقاذ لكلّ الأطراف. أولاً لإنقاذ الحرب من فكّ الاعتراض الدولي والأصوات المستنكِرة، ثانياً لإنقاذ إسرائيل من جريمة التجويع، والولايات المتحدة من جريمة الدعم المطلق لها، والدول العربية والأوروبية من جريمة الصمت المتواطئ وعدم التحرك.

إنها الفرصة الخالصة لكلّ الأطراف المُشارِكة في الجريمة، لتخفيف العبء عن أكتافها، وممارسة الإبادة كفعلٍ صامت.. وبسيط.

كل هؤلاء الذين يروّجون لاحتفالية دخول المساعدات، بآلاف الكاميرات والتصريحات والقرارات الإعلامية، وحملات السوشل ميديا، لا يُدرِكون أن المساعدات والطعام حقٌ طبيعي لكلّ الناس، فكيف بالذين يُجوَّعون ويقتلون منذ أكثر من عامَيْن.

وجه الجوع والتعب في غزة (تصوير: أحمد جهاد ابراهيم العريني – الأناضول)

2025-07-21

غزة: أثقل أيام الحرب

هؤلاء الشهداء الذين صاروا جثامين تُرصّ في خطوط تحت أقدام الناس في بقايا المستشفيات، بالتأكيد كانوا يعيشون في الأيام الماضية، مأساةً كبيرة، عندما لم يتمكنوا من توفير الطحين ولا الطعام لأطفالهم، وقد كان خيارهم واحداً من اثنين: النظر إلى أجساد أطفالهم الهشّة بلا طعام، أو المُخاطرة ومحاولة الوصول إلى الطحين، مع احتمال الموت.

مرَّت الأيام الأخيرة، وحتى الآن، كأكبر أيام في مجاعة غزّة. ومرّ يوم الأحد 20 تموز/ يوليو كأثقل أيام الحرب. لا تُسرد هذه المعلومة كحدثٍ عابر، إنما تُعاش كواقع، وليس أيَّ واقع، بل الواقع الصعب والكارثي الذي نراهُ في الشارع. حقيقةً، لم أشهد شخصياً، ولا مَن حولي من الناس، العائلة والأصدقاء، يوماً كهذه الأيام.

منذُ إعلان الاحتلال قبل أكثر من شهر عن عودة دخول المساعدات، انقلبت الحقائق. ومع عمل الشركة الأمريكية FHG، زاد التغييب الإعلامي والتحايل على مشاهد المجاعة، بتفاصيل مُركّبة، روّجها الأمريكيون والإسرائيليون، وساعدتهم كثيرٌ من وسائل الإعلام،

ولاحقاً الأوربيون الذين رفضوا مؤخراً فرض عقوباتٍ على إسرائيل، بعد سلسلة طويلة من التهديدات، والتباكي على الواقع الإنساني في غزّة.

بدأ الأمر بالإعلان عن دخول البضائع والمساعدات إلى غزّة، فيما ظهرت الحقيقة خلال أكثر من شهر. لا بضائع تدخل، لا مساعدات. تدخل كمياتٌ قليلة جداً. فمقابل 600 شاحنة على الأقل يحتاج إليها يومياً قطاع غزّة، تدخل حوالي 30 إلى 60 شاحنة يومياً! وهذه تبدو نكتة سخيفة ومأساوية. فماذا عن بلدٍ يُعاني من مجاعة ونقصٍ شديد في الموارد والأغذية؟ وقد بدأ الإسرائيليون بضخّ أخبار دخول المساعدات، من خلال صفحات «المنسِّق» و«الناطق باسم الجيش»، وغيرهم من مسؤولي الاحتلال، ثم تبعتهم الصحف ووسائل الإعلام العبرية. الساخر أكثر من ذلك في الأمر، أنّ هذه الأخبار كانت تلقى استنكاراً من مسؤولين يُقال إنهم «مُتطرفون»، مثل بتسئيل سموتريتش وإيتمار بن غفير، في مكان يُجوَّع فيه أكثر من مليوني إنسان ويبادون، وذلك لما يقارب سنتيَن. وهذا يجعلنا بطبيعة الحال نُدرك ألّا مُتطرفين في الأمر، فوجود المتطرفين يضع افتراضاً بوجود عكسهم، المُسالمين الطيبين.

الأمر الثاني الذي أسهم في تغييب صورة المجاعة إعلامياً، هو بدء عمل الشركة الأمريكية التي أعلن عنها ترامب، وقبله سفيره في تل أبيب، التي تحوّلت إلى مصيدة كبيرة للموت. فقد قُتل ما يقارب 800 شخصٍ أثناء محاولتهم الحصول على المساعدات، بين أواخر أيار/ مايو و7 تموز/ يوليو، وفقاً لتقارير مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، فضلاً عمّن اعتُقلوا لدى الاحتلال الذي

يتواجد في مُحيط الشركة، ومن فُقدوا في مكان عمل الشركة نفسها، التي تحوّلت إلى مصيدة وما يُشبه مركز الاحتجاز الكبير المُهين على مدار شهريَن.

مؤخراً، أعلن الاتحاد الأوروبي عن اتفاقية مع إسرائيل، تقضي بدخول المُساعدات «بأعدادٍ كبيرة» إلى قطاع غزّة، مع تحديد أكثر من 500 شاحنة يومياً، ستدخل وفق الاتفاق. كان الحديث عن دخول المُساعدات بدايةً، منتصف الأسبوع الماضي، ثم تحوّل الأمر إلى يوم تموز/17 يوليو. ولكن الأوروبيين اعلنوا عن أن الاتفاقية لم تُطبّق بعد، وأنهم يضغطون على إسرائيل للتنفيذ، فيما يظهر واضحاً أن الاحتلال كان يُريد تجاوز جلسة القرار، التي كان سيُعلِن فيها الأوربيون عن فرض عقوباتٍ على إسرائيل.

جرى الترويج للاتفاقية الأوروبية-الإسرائيلية بشكلٍ هائل في الإعلام العربي والإسرائيلي، واعتُبِرت التصريحات الأوروبية الأمر كأنّه إنجازٌ ضخم لرُعاة السلام، مُحبي الخير، الذين لم تُلطّخ أيديهم بدماء الفلسطينيين منذُ حجّهم إلى تل أبيب بعد «أكتوبر 2023». لكنها في نهاية المطاف، لم تتعدَّ كونها بالوناً، ومن شدّة انتفاخه، انفجرَ في لحظة.

في الأيام الأخيرة، توقّف دخول المُساعدات من المعابر التي ترعاها إسرائيل، وعلّقت الشركة الأمريكية عملها ليومَيْن أو أكثر، تحت حججٍ كثيرة، بينما لم تُطبّق الاتفاقية الأوروبيّة-الإسرائيلية. أمام ذلك، ارتفعت أسعار البضائع بشكلٍ خيالي. فكيلو واحد من الطحين، زاد سعره من حوالي 53 و40 شيكلاً، إلى100 شيكل أولاً، ثم إلى 200 و300 شيكل بعد يومين، وهو أعلى سعر للكيلو الواحد منذ بداية الحرب، ويُساوي سعر حوالي 6 أكياس كاملة

من الطحين في الزمن العادي، زمن ما قبل الحرب.

كانت الأيام الأخيرة الأصعب، عليّ شخصياً، وعلى عائلتي، وعلى الناس، على الرغم من قناعتي أنني أفضل من غيري بكثير، في قدرتي على تأمين الحد الأدنى من احتياجاتي مسبقاً، بسبب طبيعة عملي كاتباً في مواقع خارج غزة. لكنني شهدتُ ساعاتٍ صعبة مع أشخاصٍ كثيرين، تواصلوا معي لمساعدتهم، وهو وقتٌ صعب، يصعب على الناس مساعدة بعضهم فيه، فكُل ما لدى أي شخص في غزة الآن، مهما خزّن وخبأ من الطعام، لا بُد أنه قليل جداً مع أكثر من أربعة أشهر من الحصار، ويُفكّر الشخص قبل مساعدة الآخرين في نقطة مهمة، فلو قدّمت هذا لغيري، سآكل اليوم وغداً، ورُبما لن آكل بعد الغد، فماذا لو صارت أيام المجاعة الشديدة بدل يومَين ثلاثة وأربعة؟

تواصل معي رجلٌ ستيني، أحاول في بعض الأحيان مُساعدته من خلال أصدقاء وأهل الخير وبعض المؤسسات، ومما يتوفّر حولي. الرجل مريض بالسُّكر، ويُعاني من إعاقة جسديّة تُصعِّب حركته، وزوجته وابنه مرضى بالسرطان، يعيشون بلا مُعيل. نزحت بناته الخمس إلى بيته، وتعيش العائلة بناءً على ذلك في وضعٍ لا يُمكن تخيله من المعاناة والفقر والجوع. قال الرجل إنه عادةً لا يطلب من أحد، فيكتبُ الله رزقه سريعاً من دون أن يطلب، ويجد في كلّ مرة من يُقدِّم له الخير قبل أن يسأل، لكنهُ اضطر هذه المرة إلى محادثتي وسؤالي.

قال بالحرف الواحد: «لا أُريد طحين، فهو حُلم بالنسبة للناس، وبالنسبة لك كما هو بالنسبة لي، لكنني أُريد بعض العدس أو الفاصولياء. ونحنُ كعائلة كبيرة من 20 شخصاً لم نأكل منذُ

الأمس سوى 3 أقراص من الفلافل لكل شخص، بلا خُبز وبلا شيء، واشترياها بما يُقارب 10 شيكل».

لم أتحمّل كلام الرجل، لكنه لم يكُن الوحيد، فقد تواصلت سيّدة أخرى مع زوجتي، ممن كُنا نساعدهم بالطريقة السابقة. قالت إنها لا تُريد المال، تريد فقط أيّة لُقمة أو ما يكفي لعمل طبخة واحدة من الأرز أو العدس، لتُطعم أطفالها هذا اليوم فقط. أمّا امرأة أُخرى، فتواصلت مع زوجتي أيضاً، وهي حامل، تطلبُ منها مساعدتها في أيّ شيء، كي تستطيع حماية جنينها.

لم يتوقّف الأمر عند هذا، فصباح اليوم التالي، تواصلت ابنة خالتي مع أُمي في ساعات الصباح الأولى. قالت أُمي إنها تتوقع السبب، وصَدَقت، فقد طلبت ولو رغيفيْن من الخُبز، قالت: «والله يا خالتي، ابني من الليل ما أكل شي. وطول الليل جعان، بحاول أصبّره، وخلّيت أخته تلهيه وتسكّته».

في المجموعة الخاصة بعدد من الأصدقاء، سألت فتاة أيضاً عن قدرة أيّ شخص على توفير ولو رغيفين من الخُبز، وبُقابل. انقلب الحديث في المجموعة عن المجاعة وعن خيارات الأكل. قُلت إنني لا أمتلك الطحين، فعندما بدأتْ الأزمة كنت أمتلك كيساً واحداً، ونفد، ولا أزال أعيش على بعض الأرغفة، التي تُرسلها أُمي من مخزونها، وأحاول كلما توفّر شراء بعض خبز الصاج غالي الثمن، صغير الحجم، وعديم الفائدة. لكن اسمه خُبز على الأقل.

قال شخصٌ آخر في المجموعة إنه حاول خلال يوميْن البحث عن طحين أو شراء الصاج أو الخبز، لأجل ابنته، لكنه لم يجدهُ أبداً. كان ذلكَ مساء الجمعة الفائتة، مع ذروة صعوبة الوضع، وبعد انقطاع كامل لكل البضائع وتوقف التجار والباعة عن العمل في الأسواق،

وبعد ثورة هائلة قام بها الناس الجائعون واللجان الشعبية، ضدّ كل تاجر يقوم بالبيع بأسعار مرتفعة.

هذا الأمر انقلب ضدّهم، كطبيعة كل الأشياء بالنسبة إلى أهل غزة. فمع إغلاق الأسواق وهروب الباعة، اضطروا إلى تخزين وإخفاء بضائعهم، لتزيد الأسعار بشكل يفوق الخيال. صار الناس يدركون أن غزّة الآن هي أغلى بلد في العالم من حيث المعيشة وتكلفة الطعام. هي كذلك من حيث أسعار الإيجارات، مع الدمار الهائل وانعدام فرص العيش، عدا في الخيم. فإيجارات الشقق تبدأ من 600 دولار فأكثر إن كان الشخص محظوظاً، وتكون في العادة 1000 دولار أو أكثر، بحسب المساحة وحجم العائلة التي ستعيش فيها. أيضاً هي أكثر بلد من حيث انعدام فُرص الأمن والخطورة. ماذا أكثر؟ لا أعتقد أن هناك أكثر. لا يعتقد الناس أن في العالم شيئًا أسوأ مما يعيشونه.

ستستمر الحال على هذا الشكل، طالما بقيت غزّة بلا حلول. أيّ حل يكسر حدّة المجاعة ويسهم في مساندة أهلها. فهُم الآن في دوامة كبيرة، بين الموت والجوع. ترفض إسرائيل تأمين أية جهة للبضائع والمساعدات التي تدخل، على الرغم من قلتها، وتعتبر كلّ من يؤمِّن البضائع منتمياً إلى «حماس». وفي حال عدم تأمين الشاحنات، تُسرق، ويستولى عليها من يمتهن السرقة وبيع المساعدات، لتبقى الدوامة مستمرة. بضائع تدخل بلا تأمين، تُسرق، ثُم تُباع بأسعار خيالية، يتم احتكارها وفق أهواء مجموعة من الأولاد عديمي الضمير والأخلاق.

وبلا حل يتداعى إليه كل الأطراف، بدءاً من «حماس» ووفدها المفاوض، الذي لا يزال يَعد بالوصول إلى صفقة، وحتى السلطة

الفلسطينية، والدول العربية، وغيرهم من المسؤولين الأوروبيين والدوليين، لن تُحل الأزمة، وستبقى في دوامةٍ كُبرى: حصار غذائي، ومساعدات شحيحة، وسرقة، ومجاعة.

هذه الأحداث التي نعيشها، والمجاعة المتفشية، يبدو أن لا أحد يراها. صباح الأحد 20 تموز/ يوليو، كان اليوم الأثقل في الحرب. ظهر أنس الشريف مراسل الجزيرة وهو يبكي، وعلى الشاشة ظهر الخبر بوضوح: «45 شهيداً بنيران جيش الاحتلال منذ فجر اليوم بينهم 15 من طالبي المساعدات». وفي وقت عرض الخبر، كانت عدّة مستشفيات في غزّة تستقبل أعداداً هائلة من الجثامين، التي تُنقل على عرباتٍ تجرها حيوانات، وعلى سيارات «توك توك» شعبية صغيرة. امتلأ مستشفى الشفاء واعتذر عن استقبال الضحايا، ثم نُقلوا إلى مستشفى القدس ومستشفى الهلال الأحمر الميداني، فيما كانت تصل العديد من الجثامين إلى عيادة الشيخ رضوان ومستشفى حمد في شمال غزّة، وفي أغلبها جثامين بلا رؤوس، لا يُعرف لها معالم، ولا من هم أصحابها.

هؤلاء الشهداء الذين صاروا جثامين تُرصّ في خطوط تحت أقدام الناس في بقايا المستشفيات، بالتأكيد كانوا يعيشون في الأيام الماضية، مأساةً كبيرة، عندما لم يتمكنوا من توفير الطحين ولا الطعام لأطفالهم، وقد كان خيارهم واحداً من اثنين: النظر إلى أجساد أطفالهم الهشّة بلا طعام، أو المُخاطرة ومحاولة الوصول إلى الطحين، مع احتمال الموت.

أفكّر الآن، في كيف سيشعر أبناء هؤلاء الرجال؟ بما سيفكّرون؟ كيف سيكبر الطفل الذي يعرف أن والده توفي وهو يحاول الحصول على طعام من أجله؟ إنها ندبة قويّة، أسوأ من كُل

ندبات الجسد. ندبة ستلاحقهم طويلاً بل إلى الأبد في قلوبهم، حين يتذكّر أن ثمن اللقمة كان حياة والده. رُبما كان الموت قصفاً أهون من هذه الكارثة، حين نُدرِك أن مصيرنا أن نموت بالأسلحة والطيران. لكن أن نموت ونحن نحاول الحصول على الطعام، ألّا تبدو شيئاً شاذاً في نظر عالم يعشق الحروب؟!

غزة، اللوحة للفنانة الغزية الشهيدة هبة زقوت

2025-07-05

نقاش هادئ حول ألم غزة

غيَّرت تضحيات غزة المهولة الموقف العالمي الذي كان راسخاً في ميله إلى تأييد إسرائيل، أو على الأقل إلى التعاطف معها: في أوروبا والغرب إجمالاً، بحكم شعورهم بالذنب بسبب المحرقة اليهودية للنازيين، وتواطؤهم مع تلك المحرقة بدرجات وأشكال مختلفة، وأيضاً لأن فكرة قاعدة أمامية للاستعمار في بلادنا، أغْرت حكوماتهم الاستعمارية التي كانت قد خسرت كثيراً من مواطئ أقدامها المباشرة على أرضنا. وفي سائر العالم، بحكم الجهل بالموضوع، والغرق في مصائبهم الخاصة. ولكنهم مع أهوال غزة عقدوا رابطاً بين تلك المصائب وفلسطين.

لن تُحرِّر غزة، وحدها، كل فلسطين. هي - ولوحدها الى حد كبير - دفعت ثمناً مهولاً، كان من نتائجه فضح وجه إسرائيل البشع، الشيطاني، أمام كل البشرية.

غيَّرت تضحيات غزة المهولة الموقف العالمي الذي كان راسخاً في ميله إلى تأييد إسرائيل، أو على الأقل إلى التعاطف معها: في أوروبا والغرب إجمالاً، بحكم شعورهم بالذنب بسبب المحرقة

اليهودية للنازيين، وتواطؤهم مع تلك المحرقة بدرجات وأشكال مختلفة، وأيضاً لأن فكرة قاعدة أمامية للاستعمار في بلادنا، أغْرت حكوماتهم الاستعمارية التي كانت قد خسرت كثيراً من مواطئ أقدامها المباشرة على أرضنا. وفي سائر العالم، بحكم الجهل بالموضوع، والغرق في مصائبهم الخاصة، ولكنهم مع أهوال غزة عقدوا رابطاً بين تلك المصائب وفلسطين.. ومأساة غزة وقوة احتمال سكانها، دفعت كثيراً من الدول – وليس من الشعوب فحسب - إلى إدانتها، وبلورت حركات، وإعلانات وعرائض، من فنانين ومثقفين وكتّاب، ومن سواهم، تقول: «من النهر إلى البحر»، و«هذه إبادة»، و«هذه من أبشع مجازر العصر الحديث»... وهي جعلت أغلبية من اليهود عبر العالم يتبرأون من إسرائيل، ويعلنون رفضهم لما تقوم به، رافعين شعار «ليس باسمنا»... وطورت الوعي بالصلة بين ما هي عليه الصهيونية وإسرائيل منذ التأسيس الوظيفي لها، وما تقوم به الآن، وبين السطوة الامبريالية على العالم، الجشعة والدموية.

هذه أعلاه هي البداية، الموقف الأساس، الذي ينطلق منه هذا النص، وهو موقف سياسي وليس عاطفياً (مع أنه ليس في العاطفية والتعاطف ما يُعاب).

يكثر الحديث في مواقع التواصل الاجتماعي، والجدال، بين فريقيْن، ويزيد في الفترة الأخيرة، ونحنُ ربما كنا على أعتاب نجاح مفاوضات وقف إطلاق النار والتهدئة، بين حركة حماس وإسرائيل. الفريقان، فريق المؤِيدين لإنهاء الحرب بأيّ شكل، والآخر، فريق الرافض لإنهائها، تحت حُجة «رفض الاستسلام». ويتطرّف الفريق الثاني ذاك في وضع افتراضاتٍ صادمة، ومؤثّرة وصعبة نفسياً، لما يراه،

شكلاً وتصوراً، للمواطن الغزّاوي، ما دفعني إلى أن أسأل نفسي: هل يعرف العالم أن أهل غزّة بشر؟

إنهُ سؤالٌ حقيقي، وطبيعي، من وحي التجربة. أقرأهُ كلّ يوم. فمثلاً، حين غرّد صحافي شهير يعمل في قناة الجزيرة، وهو يُعَد «واجهة صمود» بالنسبة إلى كثيرين من مؤيدي غزّة - ومن مؤيدي حماس تحديداً - بوجوب التوصل إلى اتفاق، ووقف إطلاق النار سريعاً وبأيّة طريقةٍ كانت، ردّ عليه كثيرون. وكان أحد الآراء الملفتة، لفتاة تقول: هذا الكلام لا يليق بغزّة ولا بأهل غزّة. كأنّ الكاتب ارتكبَ جريمة فظيعة، وكأنها تقول بشكلٍ آخر: ما هذا يا رجُل، تُريد توقّف الموت؟ أنتم لا يليق بكُم إلّا الموت، فكيف تريدون وقفه!

دفع اتفاق وقف إطلاق النار بين إيران وإسرائيل، أواخر شهر حزيران/ يونيو 2025، إلى وجود كثافة في العمل على إتمام اتفاقٍ آخر في غزّة. لكن الصباح الأوّل بعد الإعلان عن الاتفاق، كان صعباً وثقيلاً على الغزيين، فقد استيقظ الناس على حربٍ أُخرى انتهت، ولم تمتد لأكثر من أسبوعيْن، فأدركوا أنّ حروباً كثيرة انتهت، من لبنان، إلى سوريا، وباكستان والهند، وحتى إيران، والصراع بين اليمن والغرب، وغيرها، ولا يزالون هم يقبعون تحتَ آلة الحرب منذُ ما يُقارب العاميْن.

يومها كتبتُ بوضوح، داعياً إلى التوصل بسرعة إلى اتفاق يُنهي هذه الحرب، ويوقف الكارثة، منتقداً المفاوِضين الفلسطينيين، الذين يفترضون أننا دولة قويّة وكبيرة، ومنتصرة، فيرفضون التنازل، بينما تنازلت دولٌ أخرى وأحزابٌ أكبر منّا. حتى إيران التي قد تكون تمتلك السلاح النووي، وكانت نداً لإسرائيل طوال

سنوات، حاولت الحفاظ على مُقدراتها، وإنهاء الحرب بأقلّ الأثمان. فأين نحنُ من هذا الدور بعد كلّ هذه المدة، فيما ليس لنا من مُقدراتٍ سوى أرواح أطفالنا؟

ما قُلته وما يقوله كثيرون، ليس استسلاماً، ولا تنازلاً عن حق الدفاع عن هذه القضية، كما يراه جمعٌ كبير من الناس، من داخل غزة ومن خارجها. ومن في الخارج هم الأكثر، والرأي الغالب - باعتبار أنهم لم يعيشوا المعاناة - فيسوقون كلّ يوم روايةً ثابتة، دينية، عاطفية، وشعبويّة جداً، تقضي بعدم الموافقة على أيّ اتفاق، لا يضمن نهايةً واضحةً للحرب ويوقف المُعاناة. ويزيد البعض على هذا الرأي، بمطالب أخرى، كرفع الحصار ووو.. وهي من قبيل خضوع الاحتلال لنا كفلسطينيين، وكأننا نمتلك من القوة ما يُجبر الاحتلال على تنفيذ ما نُطالِب به.

بكلّ أسف، يتطرّف هذا الرأي كثيراً، حين يُشكّل جبهةً صلبة، عاطفية وإعلامية قويّة، تتصدى لأي رأي يدعو إلى وقف الحرب ولو لأسبوعٍ واحد. وهذا الأخير في الغالب هو الرأي الفلسطيني الغزاوي المحلي، الذي يعيش ويُعاني كلّ يوم من ويلات الحرب، منذُ أكثر من 360 يوماً، ويعيش لأكثر من أربعة أشهر من إغلاق المعابر، فلا يستطيع توفير تكلفة كيلو واحد من الطحين - زاد ثمنه عن 30 دولاراً في بعض الأحيان - لأولاده وعائلته، وهو ما يوفّر 10 أرغفة لا تكفي ليوم. ذاك هو من يُريد وقف الحرب بأيّ ثمن.

اختلفت مطالبنا. كُنا نريد وقف الحرب، الآن نُريد بكل بساطة تأجيل حكم الإعدام المكتوب لنا. هذا ما يقوله الناس في غزّة. فالمعادلة واضحة. مؤيدو رفض التهدئة، يقولون إنّ ورقة الأسرى

هي الوحيدة الرابحة معنا، والدخول في أيّ اتفاق لشهريْن، يعني انتزاع هذه الورقة، وعودة إسرائيل إلى الحرب.

لكن في هذا الرأي نُقطتيْن ضعيفتيْن.

الأولى، إذا كانت ورقة الأسرى هي الرابحة والقويّة، فلماذا يُصرح كثيرون من أصحاب هذا الرأي، ليلاً نهاراً، وحتى المسؤولين، بالقول إنّ قيادة حكومة نتنياهو والاحتلال، لا يهتمون للأسرى، ويريدون موتهم؟ بذلك، فإن هذه الورقة ليست رابحة، لأن رحيلهم أو موتهم، هو راحة أكبر لإسرائيل.

والثانية، إذا كانت الحرب ستُستكمل، فمُقابل أيّ اتفاق تُريدون ضماناتٍ لوقفها، أمريكية وثابتة، ومن إسرائيل. ما الذي يضمن هذا الشرط؟ خصوصاً وأنّ الرأي هُنا، دائماً ما يُردد مقولة نعرفها: إسرائيل لا عهد لها. أعتقد أننا رأينا ذلك. حتى ترامب لا عهد له. فهو الذي فاوضَ إيران وقال إن معها فرصة للاتفاق، ليستيقظ أهلها صباح اليوم التالي على القصف الإسرائيلي، ثم الأمريكي، قاطعاً عهده. فهل أيّ عهدٍ آخر من الطرفيْن سيكون منطقيّاً؟ وهل من يرعاه ويحميه في هذا العالم، ونحنُ أمامَ «سيّد العالم» الذي يجوب كلّ الدول قصفاً وقتلاً، ثم يحطُ كحمامة سلامٍ، كأنّهُ أنقذ أهلها من الموت؟

إذاً، نحنُ أمام فرضية رئيسية، يُطالِب بها الناس في غزّة، وهُنا لا أقول عن نفسي فقط كمواطن غزّاوي مسُتنزَف ومُتعَب، ينتظر موته في الشارع وفي الأسواق، ويترقب الصاروخ القادم ليُفتت جسدهُ أشلاءً، إنما رأي كلّ الناس المُرهَقين المتعَبين، في الحارة، في السوق، وفي السيارات، وفي قلب البيوت.

الاحتمال الوحيد الذي يُريده الناس: التجربة. جرِّبوا. فما هي النتيجة؟ كما تقول النكتة الشهيرة في الفيلم المصري: «كدة ميّت وكدة ميّت»، يقول الغزّاويون اليوم: إن عقدوا اتفاقاً لشهريْن، سنموت بعدها، وإن لم يعقدوا، سنموت الآن، فما هي الأولوية؟ أجِّلوا موتنا قليلاً، اعطونا فرصة 60 يوماً، نأكل فيها، ونُعيد لملمة أجسادنا المُرهقة التي لم تأكل الطعام الجيّد، وأُرهقت من البحث هنا وهناك عن المُساعدات، ثم اتركونا للموت، إن لم يكُن هناك بُدّ من ذلك.

هذه الفرضية، ورغم سوئها، تضع احتمالية ولو ضئيلة، لأن تنتهي الحرب ما بعد فترة 60 يوماً المُقررة في الاتفاق الموعود، وهذه الميزة الثانية فيها، بعد ميزة دخول المُساعدات وإعطاء فرصة للراحة للناس خلال فترة الشهريْن.

فهل بقي لنا كفلسطينيين لا نعيش سوى الموت، إلاَّ المفاضلة بين خيارات الموت وطُرقِها؟

يرى الناس في غزّة أنّ التسليم بالواقع الذي نعيشه هو الأولوية، ووقف الحرب «بأيّ ثمنٍ»، سياسي أو وطني، أولوية. فهل بقي أكثر من 55 ألف شهيد؟ نعم بقي! قد نرى غداً وبعد غد، وقد نرى بعد أشهر، العدد زاد إلى عشرة آلاف أُخرى. نحنُ نخسر كلّ يوم، وخسارتنا في دمائنا وأرواح أطفالنا أعظم من أيّة خسارة أُخرى. فإذا كان الخيار اليوم أن نحمي ما تبقى من أطفالنا، الذين تُبتر أقدام 10 منهم كُلّ يوم نتيجةً للقصف، هو الموجود، فلمَ لا؟

قدّم أهل غزّة أضعاف ما قدمه الشعب الفلسطيني عبر تاريخ قضيته، فهذا ليس مجرّد موت. إنه جوع، وموت، وقصف، وجري مُستمر للنزوح، أمام عشرات قرارات الإخلاء التي تُضيِّق مساحة

غـزّة كل يـوم. فقـد أخليـت مدينـة خانيونـس بالكامـل، ومحافظـة الشمـال، ومُسـحت محافظـة رفـح مـن الوجـود، ومـا يُقـارب نصـف محافظة غـزّة، ما يُبقي للنـاس محافظة ونصف محافظة فقط من خمـسّ، ولا يزالـون ينزحـون كل يـوم أكـثر.

وسط كلّ ذلـك، يُطَلـب من كل أب فلسطيني في غـزة، ألاّ يستيقظ لعمله، إنما يقوم للبحث عن طريقة لتوفير الطحين لأطفاله، وأخرى لتوفـير مـا يـؤكَل عـلى الغـذاء، والوقـوف في طوابـير الميـاه، وأحيانـاً الذهاب إلى أماكـن خطرة، قاتلة، ليحصل على طرد من المُساعدات. إنها إهانـة كبـيرة للكرامة الفلسطينيّة، الـتي تُحارب الاحتـلال منـذُ عشرات السنين. فهذا ليس مجرّد موتٍ عـادي بكرامة، إنه امتهان الإذلال الـذي يحاولـون الآن تكريسه كواقعٍ، يجـب كـسره في أسرع وقـت، وإفشـاله.

تبقـى النهايـة، كلمـة لـكل أولئـك الذيـن هُـم خـارج غـزّة: أهـل غـزّة ليسـوا أسـاطيرَ ولا أبطـالاً، إنهـم أبطـال بمفهومهـم اليومـي، حـين يقاومـون كلّ هـذه الظـروف مـن أجـل أن يعيـش أطفالهـم، عـلى الرغـم مـن علمهـم أنهـم قـد يرجعـون إلى البيـت، فـلا يجدونـه ولا يجـدون مـن فيـه. أمّـا نظريـة البطـل الـتي تتصوّرونهـا، فليسـت موجـودة في غـزّة. نظريـة البطـل الـتي يُريدهـا العـالم، هـي ذلـك الغـزّي اللاإنسـان، المحظـور مـن الشـكوى والـرأي. نظريـة تفـترض أنّ كل مـن هـو خـارج غـزّة المطلـوب منـه التصريـح عـن رأيـه، والتقريـر بـدلاً عـن الأطفـال الجوعـى وعـن حياتهـم وطريقـة إدارة حربهـم. أمـا هـؤلاء المغلوبـون عـلى أمرهـم، فهـم ليسـوا سـوى فرصـة للدعايـة وحصد التفاعـل والاحتفاء بالإنجـازات العسـكرية، دونـاً عـن الحديـث عـن ألمهـم ومعاناتهـم اليوميّـة.

ولا أعرف كيف وصلنا إلى هذه الحال، التي يعتقد فيها أهل غزّة أن العالم كُله لا يفهم وجع قلوبهم، ولا حرقة دماء أطفالهم. وقد أنبتت هذه الحرب فجوةً كبيرة، بين ما هو حقيقي، وما هو وهمي.

العزيز عاطف - فلسطين

2025-06-16

أفراح الطحين.. ومصائده

استُشهد العشرات من منتظري المساعدات في المكان نفسه، قرب «دوار السودانيّة»، شمال غرب غزّة، بعد إعدامهم مباشرةً من جنود الاحتلال، حيث نُصبَ لهم كمينٌ، برمي كثيرٍ من أكياس الطحين في الشارع، والاختباء، ثم الخروج لقتلهم عند محاولتهم الحصول على الطحين. هذه مصيدة، مصيدة الطحين.

عند الرابعة فجراً، امتلأ الشارع بأصواتٍ كثيرة، اخترقت صوت الطائرات المسيَّرة، التي تُحلّق طوال الوقت منخفضةً لتُقلق نومنا. العشرات من الشبان والرجال يمشون في الشارع، سلسلةً كاملة، من بدايته حتى نهايته، يحملون أكياس الطحين البيضاء. الطحين يظهر واضحاً، يُزيّن الشارع، آثاره على الأرض، الأكياس على الأكتاف. ازدادت الضجّة مع الوقت في الشارع، عند توافد أشخاصٍ آخرين.

تدُل الضجة على وجود شيء مُهم بالنسبة إلى الناس، تَكرّر في الأيام الأخيرة، حيثُ نعيش في الجزء الشمالي من قطاع غزّة (مدينة غزّة ومحافظة الشمال)، وهو دخول شاحنات المُساعدات، التي في

أساسها الطحين، إلى المكان. هؤلاء الناس في أغلبهم، ذهبوا في قلب الليل، مُخاطِرين بحياتهم، وسط الموت، كي يأتوا بلُقمة إلى عائلاتهم.

الضجّة كبيرة. إحدى الأُمهات خرجت من باب بيتها، كانت تُهلل. قالت لابنها: «اليوم أحلى مناقيش». مشيرةً إلى فرحتها بكيس الطحين، الذي نجحَ ولدها في إحضاره، ولتكافئ العائلة بهذه الهديّة بطعامٍ مُميّز ولذيذ، وهو المناقيش الشعبيّة الفلسطينيّة، المكونة بشكلٍ أساسي من الزعتر والزيت. مُهم القول إن المناقيش أكلة شعبيّة مميّزة، سهلة التحضير عادةً، ومكوّناتها بسيطة، وهي من أبسط الأشياء، التي يُمكن إعدادها من أسرة فلسطينيّة. لكن وبعد انقطاع الطحين، صار أكل المناقيش مستحيلاً، فالطحين القليل المتوافر، وغالي الثمن، لا يكفي للخُبز اليومي للناس.

الشباب ينقلون أحاديثهم وهم يمشون، حاملين أكياس الطحين. تفاصيل كثيرة حدثت في مكان وصول المساعدات، في المنطقة الشمالية الغربية من قطاع غزّة، التي يعتبرها الاحتلال الآن «حمراء»، يمنع وصول الناس إليها، وتتعرّض لكثافةٍ ناريّة كبيرة، وجزءٌ كبير منها تحت التوغّل البرّي للقوات والآليات الإسرائيليّة، ما يعني أنّ الوصول إليها «موتٌ مُحتّم».. لكن، ما الفرق بين الموت جائعاً أو قتيلاً؟

أحدُهم يقول إنه صارعَ حتى أخذ كيسه، وآخرون تحدثّوا عن الأعداد الهائلة، التي كانت في المنطقة تُقاتِل للحصول على حُصتها من الطحين. البعض يشير إلى عدد الذين توجّهوا إلى المكان. عن الحارة وشبابها، الذين تجمّعوا كي يعودوا بقوت أهلهم.

تحوّل المشهد اليومي للحصول على الطحين، إلى دراما، أو رُبما

مشاهد سينمائيّة فظيعة وصعبة، يجري تناقلها بينَ الناس. شيءٌ على الرغم من مأساويته، ينُمّ عن كوميديا سوداء بالنسبة إلى الناس، الذين ينقلون الحدث في جلساتهم، ويُقررون خوض التجربة في اليوم التالي. على الرغم من معرفتهم أنهم قد يموتون.

تدخُل منذُ أيام، إلى شمال قطاع غزّة، وسبقها إلى الجنوب، أعدادٌ قليلة من شاحنات الطحين، العنصر الأساسي للغذاء في غزّة، لصناعة الخُبز. تُقدر في كلّ يوم بحوالي 20 إلى 50 شاحنة، على الرغم من أنّ المطلوب يومياً كي تعيش غزّة أكثر من 600 شاحنة. نجحت إسرائيل في توجيه النظر عن أزمة المُساعدات وقرار إغلاق المعابر الطويل، الذي ضجّ به العالم، واستنكرهُ المسؤولون الغربيون، بالإعلان عن فتح المعابر وإعادة دخول المُساعدات بطريقتيْن: المساعدات الأمريكية التي تقوم بها الشركة المُهندَسَة إسرائيلياً، وتقطير المُساعدات بالطريقة الاعتيادية، أيّ دخول الشاحنات اليوميّة.

فعلياً، لا تدخُل سوى شاحنات الطحين، أي لا توجد مساعدات بالمعنى الفعلي. تدفع إسرائيل العالم ليُصدِّق أنها لا تُغلق المعابر، من خلال خبر إدخال المساعدات، بينما على الأرض «لا شيء!». أيضاً لا تدخُل هذه المساعدات إلى مكانها المُقرر، ولم تُسجّل حتى الآن أيّة حالة لوصول المُساعدات إلى المؤسسات أو الجهات المعنية بالتوزيع على المواطنين، بعد تكرار عمليات السرقة المنظَّمة التي بدأت في الأيام الأولى من دخولها، ثم تحوّلت السرقات إلى مهنة يوميّة تقوم بها كثيرٌ من العصابات.

السرقات، لا بُد دفعت المواطنين إلى أن يتجهوا نحو الأمر نفسه. فهناك خياران، الآن: إما أن نجوع وننتظر وصول المُساعدات،

فتُسرق من العصابات، وإما أن نُحاول الحصول عليها نحنُ أيضاً بأيدينا وأجسادنا، وقتالنا اليوميّ. وهكذا تحوّل كثيرٌ من المواطنين المجوَّعين، الذين يمنع عنهم الاحتلال طعام أطفالهم، إلى لصوص في نظر البعض.

لا أقول إن من يذهبون لأخذ الطحين لصوص، ولا أقول إنهم ليسوا سوى شُرفاء مجوّعين. ففي هذه الحال هُناك الجهتان. أرى أبناء حارتي وأقاربي وكثيراً من الناس يحاولون كلّ يوم الوصول إلى مكان وصول المُساعدات، لأنهُ السبيل الوحيد للحصول على الطحين. على مدار شهر لم تدخل المُساعدات إلى المؤسسات، ولم تستطع أية جهة أممية، على كثرتها، إعادة تسليم الطحين للمواطنين بأيّة آلية، وكُل ما يدخُل يُسرَق، وعدم الذهاب للبحث عن الطحين، يعني أنهم سيجوعون، ويتركون الطحين للسارقين.

يبقى الأمر لمن مثلي، الذين لا ناقة لهم ولا جمل. لا قُدرة على المصارعة كي يحصلوا على كيس من بين عشرات الآلاف الذين يهجمون على الشاحنات، فيُداس البعض بأقدامهم، أو يختنق آخرون، أو يتعبون مسافاتٍ طويلة من دون أن يكون لهُم حُصة، فنقول رُبما يدخل، رُبما تبدأ المؤسسات بالتوزيع، أو نلجأ إلى الخيار الآخر: شراء الطحين من اللصوص الذين سرقوه لغرض بيعه، لا لإطعام عائلاتهم. وهنا يتم بيعه بسعر خيالي. كيس الطحين في سعره العادي 20 إلى 50 شيكلاً، ويُباع الآن بحوالي 1500 إلى 2000 شيكل، ويرتفع وينخفض الثمن قليلاً، بحسب زيادة السرقات.

كُل ذلك، لا يُلغي الخيار الآخر للموت، الموت الذي يُلاقيه الفلسطيني كلّ يوم، سواء ذهب للبحث عن الطحين، أو بقي جالساً في بيته. الموت برصاص الاحتلال. فصباحُ هذا اليوم (الذي

يُكتب فيه النص، 15 حزيران/يونيو 2025)، استشُهد العشرات من منتظري المُساعدات في المكان نفسه، قُرب «دوار السودانيّة»، شمال غرب غزّة، بعد إعدامهم مباشرةً من جنود الاحتلال، حيث نُصبَ لهم كمينٌ، برمي كثيرٍ من أكياس الطحين في الشارع، والاختباء، ثم الخروج لقتلهم عند محاولتهم الحصول على الطحين. هذه مصيدة، مصيدة الطحين، بينما كان يعيشُ آخرون مثلَ المرأة صاحبة المناقيش، الفَرَح!

عبد عابدي - فلسطين

2025-05-19

رسالة من غزة: الوقت من دم!

مساء الخير، نحنُ بخير، لا زلنا أحياءً، أو كما نقول لمن يسأل دائماً «لسّه عايشين».

مساء الخير، نحنُ بخير، لا زلنا أحياءً، أو كما نقول لمن يسأل دائماً «لسّه عايشين».

الوضع حالياً هو الأصعب منذ 8 أكتوبر، أي منذ بداية الحرب، وهو الأقسى. شدّة القصف وصعوبته تفوق تلكَ الأيام، أعداد الشُهداء كبيرة جداً. هذه الليلة استيقظنا على اكثر من 130 شهيداً، المؤلم أن أغلبهم عائلات بأكملها، من الجد إلى الأب والأبناء والأحفاد، عدا عن استشهاد خمسة صحافيين في ليلةٍ واحدة. الليلة كانت صعبة. الليالي الثلاث الأخيرة هي الأصعب، لكن كُل ليلة تأتي تكون أصعب من سابقتها، أي ليلة الأحد كانت أصعب من ليلتيْ الجُمعة والسبت. القصف ليس بعيداً عن منزلنا. قصف في كلّ مكان، وطوال الليل لا نعرف النوم مع شدّة القصف، سواء بالمدفعية أو الطيران أو الزوارق البحريّة.

في داخل القطاع، الوضع صعب جداً، الطعام شحيح للغاية، البضائع القليلة الباقية أسعارها مرتفعة بشكل خيالي. مثلاً البيض كان الطبق الكامل منه يُباع بـ12شيكل قبل الحرب، الآن تُباع البيضة الواحدة بـ 51 شيكل. أي ضعف الثمن بـ37 مرّة. كذلك يُقاس الأمر على أشياء أخرى أساسية: السكر، القهوة، الطحين الغالي جداً جداً، والمعدوم، والذي يزيد غيابه من المجاعة.. الطماطم، الخضروات بمختلف أنواعها. طبعاً لا يوجد لحوم بتاتاً ولا فواكه، وهذه أصلاً من المُستحيلات الآن بعد 78 يوماً من الحصار وإغلاق المعابر.

أغلب التكيات ومراكز توزيع الطعام، توقّفت، وهي بالأصل لا تُقدم طعام جيّد وطعامها عادةً تقليدي وبسيط وخفيف، وغير مُغذي بالشكل الكافي. توقفت أيضاً، على الرغم من أن الناس كانت تعتمد عليها بالكامل. وبالتالي خسرت فرصة الطعام اليومي عشرات الآلاف من الأسر الفقيرة وذات الوضع الصعب، التي لا تستطيع شراء بضائع غالية الثمن.

الأغلب منّا يعتمد على ما تبقى من طعامٍ قام بتخزينه في بداية عودة الحرب، حين كانت الأسعار معقولة. ومن لا يستطيع فهو يدفع مبالغ هائلة، عدا عن الناس الكثيرين الذين لا فرص عمل لهم، ولا أموال، بالتالي لا قُدرة لديهم على التخزين، وهو ما يعني أنهم جائعون. غالباً كلنا نجوع في الليل خصوصاً، فنحن نحاول توفير الطعام الباقي للأيام اللاحقة. فمثلاً بدل من أن أكل رغيفاً في المساء سأفضّل النوم جائعاً كي يبقى الرغيف لطعام اليوم التالي، بالتالي أوفّر الطحين لوجبة أُخرى، وهكذا مع كُل شيء.

العمل الخيري والإنساني، متوقف نهائياً.. أولاً لا يوجد مساعدات

ولا بضائع في البلد، وحتى إن توفّر مبلغ مالي لتوفير مساعدات محلية، فهي غالية جداً، ثمنها خيالي. وسبب آخر لذلك، موضوع العمولات على السحب النقدي، فلا بنوك، ولا قُدرة على توفير المبالغ «الكاش»، هذا يجعل أموالنا في البنوك، وعندما نُريد أن نحولها لشخص كي يُعطيها لنا «كاش»، أصبحوا يأخذون ما يُقارب 30 في المئة من قيمة المبلغ. أي أنني لو أردت سحب 1000 دولار، سيأخذ الصرّاف أو التاجر منها 300! وهؤلاء الفئة المستغلّة والمتحكرة، تستحوذ على ما لدينا.

العمل الوحيد المستمر إلى الآن في مُساعدة الناس، هو توزيع المياه على المواطنين، في ظل أزمة المياه المُحلّاة، وتكلفة سيارة المياه الواحدة وصلت الى 800 شيكل، بعد أن كانت لا تزيد عن 50.

ميدانياً في الشارع والحياة الوضع خطير. قد تكون في الشارع تمشي، يُقصَف بجانبك شخص أو يسقط صاروخ قُربك. هذا الأمر أصبح مُرعباً. تذهب لشراء شيء أو للحصول على الطعام لعائلتك، فتعود إليها شهيداً محملّاً. شخصياً، أصبحت مهووساً، أتجنب المرور بتجمعات المواطنين، أو البسطات، أو بين عدد كبير من الناس، خوفاً أن يُقصفوا، أو أن يكون بينهم من هو مُستهدَف. لكن كل الشوارع مليئة، فكيفَ سنهرب؟

توقعاتي: إسرائيل الآن تحاول أن تذهب للعملية الشاملة، خصوصاً أن نتنياهو يُريدها، وهو بدأ التمهيد لها. لكن اسرائيل أمام الضغط الأمريكي أيضاً تسعى لصفقة بأقل الخسائر لها، أو بأقل الخسائر من ثوابت نتنياهو. لذلك خرج إلى السطح بالأمس، موضوع المفاوضات

الذي صارَ لافتاً. أظن أن هناك فرصة لصفقة قريبة، جزئية، من

خلالها يجري بحث صفقة واسعة وإنهاء الحرب، لأن الحديث عن نهاية الحرب بالنسبة لإسرائيل الآن غير وارد. فالحل فعلياً، هو بتجنب الكارثة القادمة، و«عربات جدعون» بصفقة ولو لفترة، خلالها يُمكِن على الأقل التفاوض براحة، بعيداً عن التفاوض على دماء الناس، فالوقت من دم!

معتز نعيم - فلسطين

2025-05-08

خُطط توزيع المُساعدات لغزّة.. هندسة الإذلال

تقضي الخطة الاسرائيلية-الامريكية الجديدة بدخول 60 شاحنة من المساعدات يومياً، يتم توزيعها على مراكز مُخصصة تُقام في جنوب قطاع غزّة، يحميها ويؤمّنها من الخارج الجيش الإسرائيلي. وتقوم على عملية التوزيع، شركاتٌ أمنية أمريكيّة، والمؤسسات الدولية والأمميّة المُختلفة. ستُموَّل المساعدات من قبل دول أخرى، أو من المؤسسات التي ستشتريها وتُدْخلها إلى غزّة، وبعدَ التفتيش الإسرائيلي الدقيق، وفق ما نقلته صحيفة «واشنطن بوست»، وتحدثت عنه مواقع مثل «أكسيوس». سيأخذ الفلسطيني طعامه ومساعداته، أسبوعياً. سنتوجّه كمواطنين إلى نقاط التوزيع مرةً كل أسبوع، لنستلم المُساعدة، التي ستكفي للأيام السبعة فقط، قبلَ أن نعود لنتسلم غيرها في الأسبوع التالي، في طوابير إذلالٍ مُخصصة لذلك.

فيما يجري تسريب معلومات عن خطة الابادة الجديدة لغزة التي أُقرَّت و«توشِك» على الانطلاق، ثم «تأجيلها» بانتظار انتهاء الرئيس الأمريكي ترامب من زيارته للمنطقة، وما بين الحرب الفعلية الدائرة كل يوم، مترافِقة مع سقوط الشهداء بالعشرات، وتلك التي يجري بتكرار التهديد والوعيد بـ«فظاعتها»، تستمر مخططات الإذلال عبر التجويع وأوامر الاخلاء.

تقوم الخطة الإسرائيلية-الأمريكيّة الجديدة، التي يجري الحديث عنها في الإعلام، وفي أروقة السياسة الإسرائيلية مؤخراً، على توزيع المُساعدات على المواطنين الفلسطينيين، من قبل المؤسسات الإغاثيّة الدولية مباشرةً، لكن بآليةٍ مُختلفة وجديدة. هذه المرّة لن تصل البضائع والمُساعدات إلى التُجار والمؤسسات المحلية، ولن تُباع في الأسواق،وذلك بغاية المزيد من التحكم بمشاعرنا وبمعدتنا أيضاً. تقضي الخطة بدخول حوالي 60 شاحنة من المساعدات يومياً، يتم توزيعها على مراكز مُخصصة تُقام في جنوب قطاع غزّة، يحميها ويؤمنّها من الخارج الجيش الإسرائيلي. وتقوم على عملية التوزيع، شركاتٌ أمنية أمريكيّة، والمؤسسات الدولية والأمميّة المُختلفة. ستُموّل المساعدات من قبل دول أخرى، أو من المؤسسات التي ستشتريها وتُدخلها إلى غزّة، وفق الآلية المُحددة، وبعدَ التفتيش الإسرائيلي الدقيق، وفق ما نقلته صحيفة «واشنطن بوست»، وتحدثت عنها سابقاً مواقع مثل «أكسيوس».

سيأخذ الفلسطيني طعامه ومساعداته، أسبوعياً. أيّ سنتوجّه كمواطنين إلى نقاط التوزيع هذه، مرةً كل أسبوع، لنستلم المُساعدة، التي ستكفي للأيام السبعة فقط، قبلَ أن نعودَ لنتسلم غيرها في الأسبوع التالي، وبالطريقة نفسها، تحتَ أعينِ جيش الاحتلال والشركات الأمنية، ووفق آلية الاستلام نفسها، في طوابير إذلالٍ مُخصصة لذلك.

هندسة الإذلال

تُحاول إسرائيل منذ اليوم الأول للحرب، رسمَ خُطة إذلال الفلسطينيين في قطاع غزّة خاصة. يُشرف على أشكال الإذلال مهندسون متخصصون من جيش الاحتلال، ومنظومته الأمنية،

وخلفها المنظومة السياسيّة، التي تُطلِق أبواقها يومياً لإقرار خُططٍ مختلفة، تتغيّر مع الوقت وتتطوّر، تهدف إلى تحويل الإذلال إلى ممارسة يوميّة نتعرض لها، ودمجها في وعينا الجماعي كفلسطينيين نعيش في هذا السجن الكبير.

يستحضر ذلك ما «هندسه» الخبراء النازيون بخصوص المعتقلين في معسكراتهم، من تعيين ما يحتاجه الانسان ليبقى على قيد الحياة، وذلك بالحدود الدنيا تماماً الضرورية لذلك. وكانت «الوجبة» تتغير بحسب «وظائف» الاشخاص، إذ كان بعض المعتقلين يكلَّفون بالقيام بأعمال شاقة، فيقرر لهم أحياناً، بناء على تلك الدراسات العميقة، اضافة بعض الطعام لهم...

بالنظر إلى الخُطة الجديدة، يظهر الإذلال كمسارٍ دقيق، مرسومٍ للمواطن، يقوم عليه يومه أو حتى أسبوعه. بدءاً من تخصيص كميّة مُحددة من الطعام تدخل إلى القطاع، نسبتها عُشر الكمية التي كانت تدخل سابقاً. وهي تُحدد بذلك الكم البسيط والدقيق للشخص الواحد لِما يأكله في أسبوع، وبالتالي في يومه، بتوزيع هذه الكمية على مدار الأسبوع، قبل قدومِ موعد الاستلام الأسبوعي اللاحق.

حتى تَوجّه ما يُسميه الاحتلال «ممثل العائلة» إلى مكانٍ مُخصص كمركز للتوزيع، في مناطق نائية وبعيدة في جنوب القطاع، المُدمّر، الذي انتهى من الوجود نتيجةً لأشهر الإبادة التي تخللها النسف والحرق والقصف، وتحتَ أعين الجنود الإسرائيليين، ومع خضوع القادمين للاستلام الى عملية فحصٍ دقيقة عبر البصمات أو الكاميرات، تَضْمن أنّ مُستلم المُساعدة ليس من تلك الفئة التي تعتبرها إسرائيل «إرهابية»، وصولاً الى الطوابير الطويلة التي ستُقسّم أكثر من مليونيْ مواطن على 5 أو 6 مراكز فقط، ما يعني

تكـدّس الآلاف في هـذه الأماكـن، بانتظـار اللُقمـة.

ليـس ذلـكَ فحسـب، سـيصطف الفلسـطينيون في طوابـير، ليـس أمام فلسـطينيين مثلهـم، مـن أبنـاء شـعبهم ممـن عايشـوا معاناتهـم، إنما أمـام أشـخاص مـن شركاتٍ أمريكيّـة أمنيـة، ومؤسسـاتٍ دوليـة مُسـتحدَثة لهـذا الغـرض، مهامهـا أمنيـة أكـثر ممـا هـي إنسـانية، يعتقـد عناصرهـا أنهـم يقومـون بـ«حمايـة الطعـام»، لا مُسـاعدة المُسـتلِمين، مـا يعـني الإمعـان في الإذلال وامتهـان الكرامـة.

تاريخ الإذلال ومحطاته

علـى مـدار أشـهر الحـرب الطويلـة، رُسـمت السياسـات الـتي تجعـل مـن إذلال الفلسـطيني، واقعـاً يوميـاً مقبـولاً، يسـتيقظ عليـه الأطفـال كلّ يـوم، بأشـكالٍ عـدّة، كالـنزوح والتكديـس داخـل مُخيمـاتٍ نائيـة، والوقـوف الطويـل أمـام طوابـير الطعـام في المخابـز، وسـيطرة شركاتٍ أمنيّـة علـى هـذه الطوابـير لضبـط الجائعين، والمحاولـة المُسـتمرة للبحـث عـن الميـاه، والتكـدّس أمـام السـيارات المُخصصـة لذلـك، وحـتى الطوابـير المُخصصـة لاسـتلام المُسـاعدات بـكل أنواعهـا.

يتكـدّس الفلسـطينيون أيضـاً إلكترونيـاً، عـلى المواقـع المُخصصـة للتسـجيل للحصـول علـى المعونـات الإغاثيـة. فقـد انتـشرت خـلال هـذه الأشـهر روابـط المؤسسـات المُختلفـة الـتي تسـمح بالتسـجيل فيهـا، وهـو مـا صـارَ شـائعاً بـين النـاس، يسـألون بعضهـم بعضـاً عـن تسـجيلهم في الرابـط «س» أو الرابـط «ص»، مـن عدمـه.

تُعـوّل إسـرائيـل في هندسـة سياسـتها الإذلاليـة، عـلى عوامـل عديـدة، حاولـت رسـمها وفرضهـا عـلى المُجتمـع الفلسـطيني في غـزّة فـترة الحـرب، مـن خـلال تشـديد الحصـار والتجويـع، الـذي يدفـع المواطـن إلى

القبول بأيّ شيء في سبيل توفير اللقمة لأطفاله، وهو ما نتجَت عنه مشاهد مجازر الطحين الشهيرة في شمال غزّة العام الماضي، ومشاهد لحاق الناس بطائرات المساعدات، أو قبولهم بفكرة الرباط لساعاتٍ طويلة أمام المخابز.

دفعت إسرائيل السُكان في غزّة إلى مساحةٍ ضيّقة خلال فترة الحرب، تُقدّر بحوالي 3 في المئة فقط من مساحة القطاع، وهي منطقة المواصي. وقد انتهجت هذا الشكل من الخُطط العسكرية، لأوّل مرة في حروبها. ولا تزال تتّبع هذا الشكل الآن، من خلال دفع الناس إلى المناطق الغربية والساحلية من المُدن، وتقليص مساحة السكن، إذ بقي حوالي 20 في المئة من مساحة القطاع بلا أوامر إخلاء حتى الأسبوعيْن الأخيريْن، ما يزيد التكدّس في مناطق نائية ومدمّرة، بلا خدمات أو ظروفٍ معيشية مُناسبة، وهو ما يُسهم في الهندسة المُقرَّرة للذُل.

كما أنّ الواقع المرسوم من حصارٍ مُشدَّد، ومنع السُكان من الخروج من القطاع بعد إغلاق معبر رفح في أيار/ مايو 2024، وحتى قبله، من خلال إجبارهم على دفع مبالغ هائلة للسفر والهروب من الإبادة، وبقاء آخرين داخل القطاع يُعانون بلا مفرّ، يُعِن في زرع صورة ذهنيّة مُذلّة لدى الغزّاوي، تجعلهُ يُقارن بين حياته الميؤوس منها وحياة أقرانه في الخارج، لتصلَ فيه إلى قناعة أنّ امتهان الكرامة هو الشكل الطبيعي لحياته.

لم أقف في طابور استلام طرود المُساعدات، منذ بداية الحرب، سوى مرتيْن، واحدة في رفح، واقفاً بدلاً من شقيقاتي النازحات، وأُخرى قبل أيامٍ قليلة في شمال غزّة، لقناعتي أنّ كلّ ما سأحصل عليه الآن سيُفيد العائلة، في ظلّ ظروفٍ مُعقّدة، لا ندري متى ستنتهي أو إلى أيّة نقطةٍ ستصل في صعوبتها.

في المرّةِ الأولى التي وقفتُ فيها بالطابور، داهمني شعورٌ سيء. أنا الذي كنت خلال سنواتٍ طويلة - منذ 2013 إلى اليوم - أعمل في توزيع المُساعدات والاحتياجات الإنسانيّة على الناس. وقد كُنتُ دائماً ذا رأيٍ بأن تكون عملية التوزيع، في الأمور التي أُشرف عليها، بسيطة، سهلة، خفيفةَ الأثر على الناس، دقيقة في تعامل المُشرفين والمُنسّقين مع المُستفيدين، امتثالاً للضمير والصوت الأخلاقي الكامن في دواخلنا، وعملاً بمبادئ العمل الإنساني المعروفة في هذا المجال. لكنّني دائماً، وخلال أشهر الحرب الطويلة، كنتُ أتوجّس من كثيرٍ ممن أراهم دخيلين على هذا المجال، يتّخذونهُ مهنةً، أو مُهمّة، تُنجَز في سبيل رِضا المُموِّل، أكثر من حملها رسالةً إنسانيّة، ما يدفعهُم إلى التعامل مع الناس بطريقةٍ أُخرى، غير تلك التي يُمليها عليهم الضمير.

يختلفُ الأمر من مكانٍ إلى آخر، ومن شخصٍ إلى غيره، في آلية التعامل، وفي مدى الدقّة بالامتثال لهذه المبادئ المعروفة عالمياً. لكن ومن جانبٍ آخر، وفي إطارٍ أوسع، جرت خلال الأشهر الطويلة من الحرب، محاولات كثيرة لهندسة المُجتمع الفلسطيني في قطاع غزّة، كُمجتمعٍ يمتهن الذُل، أو يقبله. جرى ذلك بخطواتٍ عدّة، دُمِجَ الناس داخلها شيئاً فشيئاً، من دونَ أن يدري المواطن العادي، النازح والرازح تحتَ نار الحرب والموت، وقرارات الإخلاء، أنهُ يُسيّر بطريقةٍ ما، إلى رغبة إسرائيل، إذ لا تدفعهُ إلّا غريزته ورغبته في إطعام عائلته، وهي لا تدفعها إلّا رغبتها في قهرنا أكثر.

تَظهر هذه الهندسة السياسيّة عبر المحاولات الإسرائيلية الطويلة لإقرار آلية لإدخال المُساعدات إلى قطاع غزّة، تمنع ما تدّعيه إسرائيل من أن حركة «حماس» تُسيطر على المُساعدات، وتدعي أنها بذلك تُوقف هذه «القرصنة» التي تؤدي إلى تقوية حُكم الحركة. وهو ما حاولت إسرائيل خلال أكثر من سنةٍ ونصف من

العمل العسكري والسياسي، إنهاءه.

أفكار بلا نتائج

منذ اليوم الأوّل للحرب، أعلنت إسرائيل عن قطعِ علاقتها مع قطاع غزّة، مؤكدةً أنّ القطاع لن يرَ ذرةً واحدة من الطحين أو أيّة شاحنةٍ من الطعام أو الأدوية من خلالها، كما قصفت معبر رفح وأغلقت المعابر النافذة إلى غزّة. لكنَ هذا الأمر لم يكُن عملياً أمام قوّة آلة الإبادة التي لم تُبقِ أيّة قدرةٍ للقطاع ليعيشَ بنفسه. وأمام الضغوط الدولية، اضطرت إلى فتح المعابر بعد فترةٍ قصيرة وتمرير المُساعدات ولو «بالقطّارة».

كانت المُساعدات محلّ خلافٍ إسرائيلي على مدار الأشهر الطويلة، بدءاً من التيار الذي يرفض إدخالها نهائياً، كنوعٍ من الضغط المدني والإنساني، ليصل الحال بـ«حماس» إلى الاستسلام مُقابل الحصول على الطعام، وصولاً إلى تيارٍ يرى ضرورة ابتكار آلية لتوزيع المُساعدات وإدخالها تضمن عدم سيطرة الحركة عليها.

ابتكرت إسرائيل، ومن خلفها الولايات المُتحدة العديد من الطُرق. بعضها بإلقاء المُساعدات من الجو، التي لم تتعدّى كونها «مسرحية»، كما يرى الناس في غزّة، فقتلت بعضهم، وأصابت آخرين، عدا عن وقوع بعضها في البحر، أو وصولها إلى أراضي الداخل المُحتل، أو إلى مناطق من غزة تخضع لسيطرة جيش الاحتلال. فكانت محطّ سخرية الناس، في غالب الأحيان، أو مشاهد سينمائيّة يخرج الفلسطينيون فور سماع صوت الطائرات، ليُشاهدوها مُصفِّقين مُهلِّلين.

الميناء الأمريكي العائم، كان أيضاً أحد الابتكارات التي حاولت

معالجة الأزمة، لكنها كانت مثلَ غيرها. سُرعان ما بقي لأشهرٍ قليلة، ثمّ غادرَ وانتهى. بدأ بناؤه في آذار/ مارس 2024، وأُزيل نهائياً في آب/ أغسطس من العامِ نفسه. تخلّلت هذه الفترة أوقاتٌ عصيبة على الميناء، منها توقّف أعمال بنائه في أيار/ مايو، وتفكّك بعضه في تموز/ يوليو، وعدم معرفة الناس جدواه، فكمّ المُساعدات التي كانت تدخل منه كان ضئيلاً وغيرَ عمليّ.

كان الميناء أيضاً وسيلةً للسُخرية، لتفككه وانهياره أحياناً كثيرة. وأمّا السُفن والبواخر التي كانت تحطُ قبالة غزّة، بسببه، فكانت هي الأُخرى مشهداً غريباً ومُميزاً، جعلَ الفلسطينيين يسترقون النظر من قلبِ الإبادة، إلى بحرهم، الذي صار محطّ الاهتمام العالمي، كما الجو من قبله.

أفكارٌ أخرى ناقشها الاحتلال مع الأمريكيين وأيضاً مع العرب، كُلها فشلت، من قبيل وجود لجانٍ عشائرية تقوم بتوزيع المُساعدات، أو لجانٍ أمنيّة عربية... وحتى الوصول إلى فكرة توزيع الجيش الإسرائيلي بنفسه لهذه المُساعدات، وهي فكرة مُتشدّدة، يُطالب بها اليمين الإسرائيلي، لكنها بقيت محطّ نقاشٍ وخلافٍ حتى اليوم.

من الهُدنة إلى أطول إغلاقَ

أقرّ اتفاق وقف إطلاق النار بين «حماس» وإسرائيل، الذي وُقّع وبدأ تنفيذه في كانون الثاني/ يناير 2025، إدخال المُساعدات إلى قطاع غزّة، بواقع 600 شاحنة يومياً، يُضمَن دخولها بالتساوي لكُلّ مناطق القطاع، بلا مُعيقات، بلا قيودٍ للتجويع. وعلى الرغم من أنّ العدد المُحدد لم يُطبّق تماماً خلال أيام الاتفاق القليلة، إلّا

أنها كانت أياماً لافتة، الأهم والأكثر من حيثُ أنواع وكميات المساعدات والبضائع التي تدخل إلى قطاع غزّة، منذ بداية الحرب.

دخلت المساعدات إلى القطاع، خلال هذه المدة، على هيئتيْن: الأولى مُساعداتٍ إنسانية للمؤسسات، والثانية بضائع للتُجار، يستطيع المواطن شراءها بشكلٍ طبيعي، وكلا الشكليْن يُلبيان الاحتياج في قطاع غزّة، وهو ما أنعشَ السوق خلال مدّة وقف إطلاق النار.

كجزءٍ من الضغوط، انقلب الاحتلال على بنود الاتفاق في الثاني من آذار/ مارس 2025، بإغلاق المعابر ومنع دخول المساعدات. ولا يزال القرار سارياً حتى الآن، لتزيدَ مُدة الإغلاق عن الشهريْن، خلاله مُنع دخول أيّ أشكالٍ من المعونات أو الإغاثة للقطاع، بما يتضمّن البضائع، والمُساعدات، والأدوية، والوقود، والغاز، والطعام، والمياه، والمُعدات... وهي تُعد الآن أطول مدة إغلاقٍ وحصار يتعرّض لها السُكان في غزّة منذ بداية الحرب، وفق وكالة (الأونروا) والمؤسسات الأُمميّة.

لا تَنفكّ سياسة الإذلال الإسرائيلية التي تُرسَم مع الوقت في قطاع غزّة، عن المسار الطبيعي لهذه السياسة المُطبّقة إسرائيلياً في كلّ المناطق الفلسطينيّة. لكن غزّة في واقعها، صارت بيئةً خصبة لتطبيقها وهندستها بطرقٍ أدقّ وأكبر منذُ «السابع من أكتوبر 2023»، وهي في نهاية المطاف، تهدف اسرائيلياً الى جعل ابن غزّة بين خياريْن: إمّا حياة الإذلال، وإمّا التهجير.

أيمن بعلبكي - لبنان

2025-05-01

الحصول على الماء في غزة.. الرحلة الشاقة

سيارة المياه تأتي كلَّ يومٍ في الصباح إلى هذا المكان. تبدأُ بإطلاق موسيقاها المعهودة، تتبعها موسيقى شعبيّة محلية، هي صوت الأطفال وصراخهم: «ميااا ميّاا. اجت الميّا». سُرعان ما يخرج الناس من منازلهم أفواجاً كبيرة وراءَ بعض. طوابير تنتشر حولَ السيارة، التي لا تكاد تكفي العدد الهائل حولها. يتزاحمون، فمن لا يُزاحِم على الدور، لن يعودَ بالمياه الحلوة إلى عائلته، ولن يشربَ أطفاله اليوم.

نادى صوتٌ صغير وضعيف عليّ قائلًا: «عمّو، احمل لي القِرْبة». نظرتُ إلى يميني باتجاه الصوت. كنتُ خارجاً من المنزل في أولى خطواتي؛ كي أستقل مواصلةً إلى العمل. طفلة صغيرة، ملامحها باهتة. كأغلب الأطفال في غزّة، بعض ملابسها مُتسخة، قديمة، يظهر عليها الاهتراء. الشارع كُله مليء بالأطفال والرجال والفتيات، يحملون جالونات المياه والقرَب البلاستيكيّة الصغيرة، بعض الماء ينتشر على الأرض، بعد أن غادرت المكان سيارةُ توزيع المياه.

الطفلة وإلى جانبها ثلاث قِرب لتعبئة المياه، لم تستطِع حملها لثقلها، فطلبت منّي ذلك، بعد تنبُّهها إلى أن طريقنا واحد. سيارة المياه تأتي كلَّ يومٍ في الصباح إلى هذا المكان. تبدأُ بإطلاق موسيقاها المعهودة، تتبعها موسيقى شعبيّة محلية، هي صوت الأطفال وصراخهم: «ميا ميّا. اجت الميّا». سُرعان ما يخرج الناس من منازلهم أفواجاً كبيرة وراءَ بعض. طوابير تنتشر حولَ السيارة، التي لا تكاد تكفي العدد الهائل حولها. يتزاحمون، فمن لا يُزاحِم على الدور، لن يعودَ بالمياه الحلوة إلى عائلته، ولن يشربَ أطفاله اليوم.

هذه هي المُعادلة، بسيطة وسهلة، لكن العالم لا يفهمها. الناس هُنا تعطش.

مشيتُ مع الطفلة في طريقي حاملاً قربتيْ مياه لها، بينما حملت هي الثالثة. مشيتُ وأنا أفكّر، لماذا تجري طفلة مثلَ هذه مع هذا الكمّ الهائل من المياه كي تُعبئه بنفسها. أين ذهب أهلها؟ أليس لها إخوة؟ أين أبوها؟ قبل وصولي إلى نقطة افتراقنا وتسليمها ماءها، فكّرت: رُبما استشهد بعضهم، ورُبما يذهب إخوتها للبحث عن لُقمة عيشهم. هذه طريقة تقسيم المهام، البعض يبحث عن العمل والآخر يبحث عن الاحتياجات اليوميّة. لكني سألت نفسي أيضاً: لماذا تتحوّل مُهمة طفلة مثل هذه إلى تعبئة المياه، بدلًا من البحث عن حلٍ لواجبها المدرسيّ؟

تُعد الفترة الحالية في إغلاق المعابر، ومنع دخول المُساعدات بكلّ أشكالها إلى قطاع غزّة، الأطول منذ بدء الحرب، والأصعب. حصار شديد، مُحكم الإغلاق. أكثر من خمسين يوماً لم تدخُل زجاجة

مياه واحدة إلى الناس. تبعها قطع الكهرباء عن محطات التحلية والصرف الصحي الوحيدة العاملة في وسط القطاع. تضييق كبير، محاولة أُخرى لانتهاج سياسات تكثِّف المُعاناة.

أحملُ بنفسي غالونيْ مياه، هُما الوحيدان اللذان يُدان منزلي بالمياه الحلوة. أنقلهما إلى الطابق الخامس، تُرهَق يداي، تتعبان، لكن الأكثر من ذلك، تعبي من التفكير الطويل: ماذا سأفعل إذا توقّفت سيارة المياه هذه عن المجيء إلى الحارة؟

العديد من المناطق في مدينة غزّة وفي كُل القطاع، بلا مياه. الحظ كتبَ لنا أن تداوم هذه السيارة على المرور يومياً إلى المنطقة، باعتبارها واحدة من المناطق المكتظة بالسكان، والنازحين.. تأتي في موعدٍ يومي، تُعبِّئ المياه لمن يصِل أولًا وتُغادِر. حدّثني أصدقاءَ عن مناطق أُخرى يعيشون فيها، لا تصل إليهم سيارات المياه بهذا العدد، على الرغم من وجود أعداد كبيرة من النازحين. بعض المناطق في القطاع التي واجهت دماراً أكبر، وغيرها التي لا يسكنها كثيرٌ من الناس، لسوء الخدمات فيها، إلّا أنها كانت ملاذاً لمن لم يجد مكاناً للعيش فيه وسط هذا الرُكام.

في الأسبوع الأول من شهر نيسان/ أبريل الجاري، توقّف خط مياه «مكروت» الذي يُغذي حوالي 70 في المئة من مناطق مدينة غزة. عندَ ذلك زادت المُعاناة. أغلب الآبار وخطوط المياه في المدينة، وفي كُلّ القطاع، تمّ قصفها وتدميرها خلال العمليات العسكرية منذ بدء الحرب. عدا عن ذلك، توقّفت محطات التحلية نتيجةً لعدم توافر الوقود وانقطاع الكهرباء.

هذا طبعاً هو شيء بسيط وجزئي جداً من الاحتياج الحقيقي

للمدينة والسُكان، فقد دمّر الاحتلال مُسبقاً خلال العمليات العسكرية، وأكثر من عامٍ ونصف من الحرب، حوالي 75 في المئة من إجمالي آبار المياه المركزية التابعة لبلدية غزّة، وأكثر من 700 ألف متر من شبكات المياه. هل هذا فقط؟

هذه نبذة بسيطة سريعة عن الواقع الذي خلّفته الحرب. لكن على الأرض هُناك أكثر. لم تكن تلك الشبكات تُوصل غزّة والناس بالمياه الكافية أصلاً. مثلًا كُنا ننتظر عدّة أيام قبل وصول مياه الاستخدام اليومي والشخصيّة إلى المنازل، فجدول توزيع المياه وقدرات البلديات لا تغطي احتياجات الجميع. هكذا كان الأمر بالنسبة إلى الحياة العادية قبل الحرب، فكيفَ إن تحدثنا عن الأثر الذي خلفتهُ الحرب؟ طيّب، وماذا لو تحدثنا عن تشديد وتصعيد هذا الإغلاق والحصار؟ كوارث مُتعددة ومركّبة.

المشهد اليومي للإنسان الفلسطيني في غزّة صار معروفًا. عائلات بأكملها، أطفالاً، نساءً، رجالاً، فتيات، أشخاصاً ذوي إعاقة، مُسنين، كُلهم يحملون القوارير والغالونات ويجرون وراءَ سيارات المياه، أو إلى أقرب بئر تُغذّي المناطق السكنية، وهي آبار دمّر الاحتلال نسباً كبيرة منها.

المهام اليوميّة للإنسان الغزاوي تتطلّب جهداً أكبر بكثير من الحياة الطبيعيّة للبشر. الماء هو أساس الحياة، لذلك فإنّ في جدول أنشطتك العائلية اليوميّة «الحصول على الماء». طريقة توفيره، الشخص المكلّف بالمهمة، الكمية المُحددة التي سيجلبها، إلى متى ستكفي كي يحاول أفراد العائلة التقنين والاقتصاد حتى المرّة القادمة.

المشهد اليومي في غزّة، مشهد بدائي جداً. أطفال بين الرُكام بغالونات المياه. أطفال يستحمون بالمياه في الشارع إلى جانب خيمة النزوح. أمراض وأوبئة متراكمة ومتزايدة، في قلب النزوح، مع غياب المياه.

خلقتْ منّا الحرب أشخاصاً نبحث في اليوم الطبيعي العادي، عن أبسط الأشياء، عن طريقة لنعيش فقط. نبحث عن المياه، نجري خلفها، ندور يوماً طويلًا، بأحمالٍ ثقيلة كي نشرب أو كي نسُد عطش أطفالنا. هل شاهد العالم بؤساً أشد من ذلك؟

فرات شهال الركابي - لبنان

2025-04-14

لكن، ماذا ينفع الكلام؟

في بعض الأيام، وصلت قرارات الإخلاء إلى أربعة. أي في القطاع، هناك أربع مناطق كان مطلوباً منها الهرب في اليوم نفسه. هرب إلى أين؟ هرب إلى المَحْشر. يتمدد الجيش ويُطلق قرارات الإخلاء، يتمدد من شرق المدينة باتجاه الغرب. من جنوبها باتجاه الشمال. يدفع بالناس إلى الغرب. يضغطهم أكثر. إما أن تُقتَلوا جوعاً وقهراً، وإمّا أن تموتوا بصواريخنا.

أحاول منذ مدةٍ طويلة، ومنذ عودة حرب الإبادة على شعبنا الفلسطيني في قطاع غزّة، أن أكتُب. تبدو المحاولة مُستعصية، ولم أعرف حالةً لا أتشجّع فيها على الكتابة مثل هذه، على الرغم من أن هذا الوقت في رأيي، هو الأكثر حاجةً إلى أن يكتُب الناس، خاصة مِن مِثلي داخل قطاع غزّة، يوثّقون المشاهد اليوميّة للإبادة والقصف المكثّف.

المهمة صعبة للغاية. أتحوّل قليلاً إلى نشر وتوثيق أخبار الإبادة عبر حسابي في «إكس». أحوّل حسابي في «انستغرام» إلى مساحةٍ لمشاركة رأيي الضيّق والبسيط والغاضب من الآراء المختلفة، وكُل ما يشوِّش صفاء توثيق الإبادة، بآراءَ شاذّة عن فلسطينيّتنا.

أتمدّدُ في يومي على السرير طويلاً، لا أستيقظ إلا لأشرب القهوة وأداء بعض المهام الضرورية في إطار عملي. كُلما سنحت فرصة، أعود لأتمدّد قليلاً. ما السر؟ أسأل نفسي. هل هي رغبة الهروب من الواقع؟ هل هو الألم الغائر الذي غرسته عودة الحرب المؤلمة في قلوبنا؟ كانت عودة الحرب أسوأ وأصعب نفسياً على الناس هُنا من المرحلة السابقة، أي طوال السنة من الحرب التي سبقت اتفاق وقف إطلاق النار.

عشنا أكثر من اثنين وأربعين يوماً في هدوء وسلام، على الرغم من أن كثيرين كانوا يموتون. أهل «رفح» لا يستطيعون العودة إلى منازلهم، الناس في الخيم على جوانب الطرقات، البحث عن المياه، طوابير الخُبز، العيش تحتَ الرُّكام، مشكلة المواصلات. كُلها أزمات متواصلة خلال التهدئة، التي كانت وقتاً مستقطعاً للبحث عن الحياة، ولمحاولة ترميم جدار العيش المتهالك الذي تسبّبت فيه الحرب.

عاد الناس خلاله إلى أماكنهم، أنشأوا خيماً، عاشوا في غرفة شبه متهالكة في منزلٍ مقصوف، تعايشوا مع الغبار الدائم الذي يملأ الجو، من أثر القصف والحرب وأضرار الصواريخ. لكنهم حاولوا. حاولنا أن نعيش، أن نتعايش مع المُحيط المؤلم، مع جبال القمامة والرُّكام، في سبيل ألّا نموت. تذوّقنا قليلاً طعم الحياة.

هل هي حياة؟ لا! لكنها حياة بمقياس فترة العام ونصف العام الماضية، حياة تصحو فيها بدون صوت الصواريخ، وبلا وداعات الأم لأبنائها قبل ذهابهم إلى عملهم. حياة تطمئن فيها إلى أنك تحتضن طفلكَ قبل مغادرة البيت، وأنك ستعود لتحضنهُ مرةً أخرى.

فجأة، عادت الحرب. استيقظنا في منتصف الليل، وقبل منبه السحور الرمضاني، على أصوات الانفجارات الجنونيّة التي لم نشهد لها مثيلاً من قبل. الموت من حولنا، تَشاهدنا، انكمشنا على أنفسنا، تجمّعنا معاً. عرفنا أن النهاية قريبة. أدركتُ في داخلي من دون أن أحكي لأحد، أن هناك ألماً بدأ يتسرّب بهدوءٍ إلى شراييني، يُشبه سريان الدم، ألم أن الحرب عادت، وأن هذه العودة بهذا الشكل، ستجعل نهايتها صعبة، وأننا عُدنا إلى تلك الدوامة: القصف والموت المتلاحق، الأسئلة والاتصالات فور سماع انفجار. تتصل بأخيك، تُكلم أمك، تطمئن على صديقك. تسمع الأخبار، تبحث عن خبر حول التهدئة، تدور بحثاً عن وفد مفاوض، عن تصريحات الوسطاء، عن مواعيد نُعلّق عليها الأمل الكاذب.

آآه! أي ألمٍ هذا يا هذا الكوكب؟ إنها اللحظات التي شعرنا بها جميعاً فور عودة الحرب. ثم عاد الناس إلى مآسيهم الكثيرة. البحث عن الطعام، والغلاء الفاحش، ونقص البضائع، واستبدال الطعام الطازج بالمُعلبات المؤذية وذات الطعم السيء. ثم التكدس وراء المحلات لإفراغ ما فيها للتخزين. وأي تخزين؟ هل التخزين شهراً أو اثنين؟ ثم نعود إلى المجاعة.

أتمددُ على سريري كُلما رغبت، كلما حانت فرصة، أعود لأسأل: ما السر؟ رُبما هي أيضاً رغبةٌ أخرى غير الهرب، رغبة داخلية عميقة. رغبة في أن أتمسّك بسريري كثيراً، لأنني أُدرك في داخلي أنني قد أفقده في أيّة لحظة. أنه يُمكن أن أنزح مثل أكثر من أربعمئة ألف شخص آخرين نزحوا خلال نحو شهر، تركوا منازلهم أو خيمهم وهربوا في زحمة قرارات الإخلاء المتراكِمة والمُتجدِدة. في بعض الأيام، وصلت قرارات الإخلاء الى أربعة. أي في القطاع، هناك أربع

مناطق كان مطلوباً منها الهرب في اليوم نفسه.

هرب إلى أين؟ هرب إلى المحشر. يتمدد الجيش ويُطلق قرارات الإخلاء، يتمدد من شرق المدينة تجاه الغرب. من جنوبها تجاه الشمال. يدفع بالناس نحو الغرب. يضغطهم أكثر. إما أن تُقْتَلوا جوعاً وقهراً، وإمّا أن تموتوا بصواريخنا. في كلّ الأحوال تصير المهمة سهلة، من بقي في الشرق على الرغم من أوامر الإخلاء فهو مستهدف، إنه «إرهابي» مكتوبٌ عليه الموت، كما يراهُ جيش الاحتلال. أمّا المتكدس فوق الآخرين في الغرب، فمكتوبٌ عليه النزوح، والموت بسهولة، فأيّ صاروخٍ بسيط يعني أنه أخذ دستةً من الناس معاً، من ضيق المكان.

عن ماذا أكتب وكيف أكتب؟ وهذه شذرات بسيطة من جبل المُعاناة المُتمدد المتكوِّم فوق بعضه البعض كلّ صباح. عن طفلتي الصغيرة، التي أتأملُ وجهها كلّ صباح، أحتضنها، أُقبّلها، أقول لها: «أعطيني حُضن. أعطيني بوسة». لعلي أشبعُ قليلًا منها، فأنا أعرفُ - ويا لسوء تفكيري الوحشي- أننا يُمكن أن نموت في أيّة لحظة، فماذا يختلفُ عني الشخص الذي مرّ في الشارع حاملًا زجاجة ماء، في طريقه إلى تعبئتها كي يشرب، قبل أن يُصيبه الصاروخ الذي سقط بجانبه؟

إنهُ الموت الذي يُلاحقنا في كلّ مكان، إنه الكابوس الذي لا يرحمنا. الكابوس الذي غابَ قليلاً، وعادَ بسرعة، كي يُكمل على ما تبقى من المدينة وأهلها!

ميسرة بارود - غزة فلسطين

2025-02-27

وجوه المدينة: عن الحياة في شمال غزّة

هناك أكثر من 14 ألف مفقود، لا يُعرَف مصيرهم بالأصل، لكن الأغلب يُدرِك أنهم إما أشخاص صاروا تحتَ الرُكام، وإمّا أشخاصٍ دُفنوا في مقابر جماعية، أو قبور مجهولة وطارئة في شوارع المدينة. قد تجد قبراً بلا اسم، كُتبت عليه مواصفات الشخص أو لون ملابسه، علّ أحداً من أهله يتعرف إليه. على هذه الشاكلة، صارت القبور.

قرأت نُكتة مأساويّة عن الوضع في مدينة غزّة وشمالها، بعد أيامٍ قليلة من العودة من رحلة النزوح، يقول فيها أحدُهم لصديقه إنهُ عاد إلى بيته، لكن «البيت ما فيه أيّ شيء»، ليسأله صاحبه، «فعلاً؟ ممتاز»، يرُد الآخر «صحيح، ولا شيء فيه». وهذه النكتة قد لا تبدو مُضحكة، ولا تبدو مأساوية، عند قراءتها بهذا الشكل، لكنها في اللهجة الغزاويّة والحوار اليومي تبدو مُضحكة، مأساوية، مُعبّرة، تحملُ وجوهاً عدّة.

«ما فيه أيّ شيء»، تحمل معنيين، الأوّل ألاّ شيء في البيت، أي إنه بخير، وكما هو، لا غُبار ولا رُكام ولا أضرار، والثاني، وهو المعنى

الحرفي، أيّ مسروق ولا يحتوي على شيء، أو أنه غير موجود أصلاً، مُدمَّر ومُنتهي، وبالتالي لا شيء منهُ موجود.

تبدّل وجه غزّة، فصارت أوجهَ عدّة، كُلها تدل على تشوهها، الذي خلقتهُ الحرب. ليس شيئاً مؤقتاً، بقدر ما صارَ وجهها الدائم، كما لو احترقَ وجهُ شخصٍ ما، فذاب جلده. وجوهٌ كثيرة ستبقى كالندوب في شكلّ المدينة، في ذاكرة أهلها وأطفالها، الذين سيعونَ على نمطٍ لا يُشبه النمط الطبيعي للحياة الآدمية.

وجهُ الرُكام

الرُكام هو الندبة الأبرز في وجهِ غزّة الحديثة التي خلَّفتها الحرب. فمدينة «غزّة» هي أول من حصل على نصيبه من الدمار والإبادة في القطاع، قبل أن ينتقلَ شكلُ هذا الدمار لاحقاً إلى «خانيونس»، ثّم «جباليا»، و«رفح» وغيرها من المحافظات التي واجهت المصير نفسه خلال حربِ الإبادة. وقد بلغت نسبة الدمار في القطاع ككُلّ 8.95 في المئة من المباني، التي إمّا تضررت وإمّا دُمرِّت بالكامل.

أقلّ الضرر أن تكون نصف المباني في شارعٍ واحد مُدمرة، أو محترِقة أو أكلت نصيبها من القذائف المدفعية، أو دُمّر أحد طوابقها. ينعكسُ ذلك على غيرها من المباني الباقية، فمن المُستحيل أن يكون بيتٌ في غزّة بقيت شبابيكه وأبوابه سليمة، باعتبار شدّة القصف.

شوارع مُغلقة بالركام، شوارع مُجرَّفة ومُدمَّرة، تُصعِّب من حركة السيارات والمارّة، تزيد الازدحام والأزمات. تزيد الغبار، وتُراكم أضرارها البيئيّة والحياتية على وجوه أبنائها وحياتهم اليوميّة.

هذا الوجه كما يقول عنهُ المختصون، يحتاج على الأقل إلى خمس سنواتٍ كي يُزال وينتهي.

وجهُ الخِيام

تخيّلنا جميعاً أن شكل المعاناة الذي كان مؤقتاً ما بقيت الحرب، سينتهي في غيرها ويذهب مفعوله، لكنهُ وهم ترسمه عقولنا، التي تُريد المدينة بشكلها الأصلي. انتقلتْ مُعاناة النزوح والخيام إلى غزّة وشمالها، لكن على شكلٍ أصعب وأكبر، صارت الخيمة تُجاوِر الرُكام والدمار.

تحوّلت مباني ومؤسسات «غزّة» القليلة الباقية إلى مراكز للإيواء، على الرغم من أنها مُدمَّرة ومتضّرِرة، تُجاورها الخيام بكل أشكالها. خيام كاملة جاهزة مهيأة من مؤسسات أو جرى شراؤها، خيام من «الشوادر» و«النايلون»، أو خيام من القماش والأغطية المهترئة.

وجه الطوابِير

في كُل مكان من «غزّة»، طوابير. طابور طويل على المخابز، مخبز «العائلات»، مخبز «الشرق»، مخبز «اليازجي»، مخبز «عجور»... طوابير من الانتظار لأشخاصٍ ملّوا حياة العجن والخبز على النار، لِما راكمته من ألمٍ في الصدور والعيون، وتعبٍ للأيدي والظهور، فيلجؤون إلى المخابز القليلة المهيأة والقادرة على العمل، بأقلّ الموارد وبدعمٍ من «برنامج الغذاء العالمي»، علّها تُحسن مستوى

المعيشة المعدومة في المدينة.

طابور طويل في كلّ شارع من شوارع المدينة على سيارات المياه. فقدتْ المدينة كل مصادر المياه، أو أغلبها، حيث دمّرت الحرب حوالي 330 ألف متر طولي من شبكات المياه، عدا عن تدمير مئات آبار المياه، التي كانت المصدر الوحيد لمياه الناس.

لذلك؛ يلجأ الناس إلى بدائل، فلا طريقة الآن سوى أن يُعبئ الناس المياه من خلال غالونات صغيرة مستعملة سابقاً، لتأمين المياه ليومٍ أو يومَيْن، ورُبما أقل للعائلات كبيرة العدد.

أمّا المياه المُحلاة الصالحة للشُرب، فلا حل للحصول عليها سوى سيارات تعبئة المياه، التي صارت تتجوّل في شوارع المدينة، خاصة في الأحياء المعدمة والمدمّرة، ما يدفع الناس إلى الوقوف أمامها في طوابير طويلة، وفي أغلب الأحيان لا تكفي سعة هذه السيارات للعدد الكبير الذي ينتظر دوره. من المهم الإشارة إلى أن هذه السيارات لا تعمل إلّا من خلال المساعدات الذاتية والتبرعات الخارجية من «أهل الخير»، الذين يُقررون تقديم الصدقات كـ«سُقيا المياه» لأهل «غزّة»، فلا خدمات رسمية أو كبرى أو مؤسساتية حتى لتقديم المياه المحلاة للناس، ولولا هذه التبرعات القليلة، لمات الناس عطشاً.

طوابير أُخرى من الناس، تنتظر توزيع المساعدات. فأغلب المخازن و«البركسات» الكبرى في غزّة، تحولت إلى ملجأ للمؤسسات الدولية والمحلية التي توزِّع المُساعدات. وصلت هذه المعونات إلى كلّ الناس، وهي فعلاً تسهم في التخفيف من عبء الحياة عليهم ، حتى أصحاب الرواتب ومن لديهم فرص العمل، تزيد أعباؤهم، فتُخفف منها هذه المساعدات. لكن هل هي كافية؟

قُلت كلمة في لقاءٍ مُغلق قبل حوالي شهريْن مع مسؤول «مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية» («أوتشا»)، وأنا متأكد منها. مهما دخل من المعدات والغذاء والمساعدات، فإنّ الفجوة كبيرة، وهي لا تكفي كلّ الاحتياج الذي تعيشه غزّة، ولا تعوِّض ما فقده الناس.

وجهُ القبور

أحد أقبح الوجوه التي وجدتُها في «غزّة» عند عودتي، هو الوجه الذي جعلَ الشوارع والطُرقات، مقابر طارئة. ففي الشارع وأنت تمشي، قد تجد على جنب قبراً لشهيدٍ مجهول، اضطرَ الناس إلى دفنه بشكلٍ طارئ هنا. وفي أماكن كثيرة تحوّلتْ بعض الأراضي إلى مقابر جماعيّة، أو مقابر لأشخاص لم يجدوا من يدفنهم، فاضطر أحد المشاة إلى القيام بالمهمة.

هذا الوجه يحكي عن حكايا أكثر من 41 ألف مفقود، لا يُعرَف مصيرهم بالأصل، لكن الأغلب يُدرك أنهم إما أشخاص صاروا تحتَ الرُكام، وإمّا أشخاصٍ دُفنوا في مقابر جماعية، أو قبورٍ مجهولة وطارئة في شوارع المدينة. قد تجدُ قبراً بلا اسم، كُتب عليه مواصفات الشخص أو لون ملابسه، علّ أحداً من أهله يتعرف إليه. على هذه الشاكلة، صارت القبور!

وجهُ البسطات

بدّلت الحرب اقتصاد البلد، فقد تحوّل كلّ شيءٍ يُشترى فيها

ويُباع، إلى «بسطات» صغيرة في الشوارع. مثلاً بعض الصيدليات تحوّلت إلى بسطة، على قارعة طريق، يُباع فيها مختلف أنواع الأدوية، من أشخاصٍ رُبما لا يعرفون شيئاً فيها. كذلك صارت في كل الشوارع بسطاتُ متناثرة، إما تبيع السجائر أو الطعام... فقد دمّرت الحرب أغلب الأسواق الكبيرة والمولات الفاخرة التي شُيِّدت في غزّة، والتي أسهمت في تسهيل حياة الناس خلال السنوات الأخيرة.

عدا عن ذلك، فإنّ البسطات صارت ملجأً للناس من شبح الفقر والمجاعة، فكلّ شخص بلا مهنة، أصبح يُقرر أن يتجه إلى العمل الأسهل، إنْ توفّر معهُ رأس مال بسيط، فيقوم بإنشاء بسطة لبيع المواد الغذائية أو لبيع أيّ شيءٍ آخر يرى أن للناس إقبالاً عليه.

أوجه لا تَنتَهِي

للحياة في «غزّة» وشمالها، أوجهُ لا تنتهي، ولا تُقاس. حياة أصعب من أن تصفها الكلمات. لكن قلوب الناس في شوارعها وعلى أنقاض منازلها تُدرِكها. تستيقظ كلّ نهار على هذه الأوجه، تتبدّل أحوالها مع كلّ وجه، فلا يصحو النائم في يومه إلّا ويُخطط في أي وجهٍ سيعيش؟ هل يُريد الماء أم الخُبز؟ أم يُزيل بعضاً من الرُكام؟ أم يبحث عن جثة أخيه في شارعٍ من الشوارع؟

وجوهُ «غزّة» الكثيرة، لا يُدركها العالم، وفي قلبها وجهٌ آخر لا تراهُ عيونُ العالم ولا صحافتها، وجهٌ مشوّه، يقبع في قلوب الناس. وجهُ الحرب المقيمة في عقولنا، حين تمشي سيارةٌ مسرعة في أحد الشوارع، نظنُ أنه صاروخٌ قادم إلى مكانٍ قريب، سرعان ما ينتهي الصوت

لنعود ونُدرك أن الحرب توقّفت قليلاً، وأن ما حصل ليسَ إلّا حدثاً عابراً.

وجوه الناس التي خرجت من تحت الأنقاض، تشوّهت معالمها. وجوهُ الموت والخوف والقلق، الذي لا يزال يُوقِظُ الناس في منتصف ليلهم، ولا يُهديهم إلى النوم. وجوهٌ كثيرة، لن تكفيها عشرُ أو خمسة عشر سنة كي تُرمَّم أو يُعاد إعمارُها!

أحمد السوداني - العراق

2025-02-13

غزّة..
الأرض الخراب

قال كلمةً، سمعتها كثيراً: «رُدّت الروح والله». نظرَ إلى الشارع. الحارة عادت إلى حركتها، الأطفال يلعبون، أشخاص هنا وغيرهم هناك. محلات تَفتح، أناس يحاولون استعادة عملهم. حتى الناس، وإن كانت تقضي مهامها اليوميّة في إزالة الركام وتنظيف المنازل ونفض الغبار وغسل الجدران، إلا أنها توحي بشيءٍ واحد: الناس تُحاول. الناس تعود إلى الحياة.

أحياناً نضع توقعاتنا الكبيرة حولَ أشياء، لكنَ الواقع يكون أكبر. هكذا وَجدَ الناس مدينة غزّة وشمالها، عند عودتهم إليها، بعد أكثر من عامٍ من الغياب، مرّت فيه بحربٍ طاحنة، كانت الأشرس. كُلّ شيء في المدينة تغيّر، كأنّما أمسكها أحدهُم داخل عُلبة من الزجاج وقلبها قلباً. لا هي المدينة نفسها، لا شوارعها كما نعرفها، ولا حتى أهلها كما نعرفهم.

في المرّة الأولى التي وصلتُ فيها إلى غزّة، لم أعرفها. مرّت السيارة من حي «الشيخ عجلين»، الذي يُفترض أنه من أجمل أحيائها، المُطل على شاطئ البحر من الناحية الجنوبيّة للمدينة. لم أعرف

شيئاً. ستُلازمني هذه الكلمة كثيراً في الأيام اللاحقة وأنا أتجوّلُ في المدينة.

حتى بيتي الذي كنتُ أتشوقُ لرؤيته، لم أعرفه. أكلتهُ النار، فبتُّ أمامَ مهمةٍ صعبة لاستكشاف ذكرياتي داخله. اكتشفتُ ملابسي، ومنها غصتُ إلى عُمق الذكريات. في كلّ مرة، أفتحُ مكانًا فيه قطعة من الملابس، أكتشفُ شيئاً جديداً. كلّ يوم ألبس شيئاً جديداً، كأنني أُعيد شكلَ الحياة. خنقتنا حياة الخيمة والنزوح. كنتُ لوقتٍ طويل ألبسُ الملابس نفسها عدّة أيام، حتى بعضها أنامُ فيها، أذهبُ إلى العمل، وأقضي احتياجات اليوم بالقطع نفسها من الملابس، لصعوبة مهمّة الغسل مع انقطاع المياه.

أمشي في الشوارع. أبدأ من مفترق «حميد»، المفترق الرئيس في منطقتنا، لم أعرفه. مُحي الشارع بكلّ ما فيه، من المفترق حتى يمينه وشماله، ومن غربه إلى داخل الشارع الشهير، الممتد إلى قلب «مُخيم الشاطئ» حيث أسكن. أمشي في شارع «اللبابيدي» ذاهباً إلى العمل... أمضي نحو حي «تل الهوى».. ولا أعرف شيئاً. مررتُ في «مدينة اللحوم» أو ما كانت كذلك سابقاً. للحظة لم أعرف المكان الذي أنا فيه، فقد قلبوا كُلّ ما فيه، كل المباني لا يظهر لها أثر.

هُنا كنتُ أصطفُ بالسيارة، أتسوّق بكل احتياجاتي. هُنا كان الليل جميلًا، الشوارع مضاءة، السيارات تتجوّل قرب «مفترق العائلات» الشهير ذاهبةً إلى وجهتها، غرب أو شرق المدينة، والناس في أبهى سعادتهم، إلى مطعم «الطابون» أو مطعم «الصاج» أو غيرها من المعالم في المفترق.

هل يتخيّل شخصٌ ما، أنني في مدينتي وفي بلدي، في المكان الذي

عشتُ فيه، أسأل عن مكانٍ ما؟ أمشي في الشارع، فأسألُ شخصاً داخل منطقة مدمّرة: «هذا شارع الوحدة؟». من يُصدّق؟

تغيّرَ وجهُ المدينة، حتى صار كلّ ما فيها ركاماً ودماراً. وافترشت الخيام شوارعها. ففي أحد الشوارع الرئيسية، كانت أسرة تُحيط مساحةً من الرصيف بـ«الشوادر»، وتضع داخلها خيمتها واحتياجاتها اليوميّة، لتكون ما يُشبه «الحاكورة» الخاصة بها.

صارت الخيام في كُل مكان. مثلًا تحوّل مقر «وزارة العمل» المُدمّر بفعل القصف الإسرائيلي، والذي بقيت منه بعض المباني القليلة، إلى مركز للإيواء. يعيشُ الناس فيه على الركام وداخل غرفٍ اخترقتها القذائف وشظايا الرصاص. وإلى جانبهم تنتشر عددٌ من الخيام، التي أنشأها من لم يجد مكاناً داخل المبنى المُدمّر.

في «ساحة الكتيبة»، أشهر ساحات مدينة غزّة الواسعة، انتشرت خيامٌ أخرى لمؤسساتٍ تسعى إلى إيواء الناس. كذلك، وعلى مدار الشوارع والطرقات، صار هناك ترادفٌ بين اثنين: الخيمة والرُكام. الناس الذين لم يجدوا سوى بقايا بيوتهم، فضّلوا أن يبقوا قربها، لينشئوا خيمةً أمامها، أو يضعوا بعض «الشوادر» على ما بقي منها، إن كان هناك حائط قائم.

مناطق عديدة مُسحت بشكلٍ كامل من الوجود. «مخيم الشاطئ الشمالي» و«المخيم الغربي»، منطقة «تل الهوى»، مناطق: «المقوسي» و«المخابرات»، ومنطقة «مستشفى الشفاء»... مررتُ في اليوم الثالث من العودة فيها، وهي منطقة لي فيها كثير من الذكريات، إمّا من عملٍ قديم أو من كونها الطريق الذي أمرُّ فيه يومياً من البيت إلى العمل والزيارات وباقي لوازم الحياة.

اختفت بالكامل. الشارع لا شكلَ له. البيوت والمباني كُلها إمّا واقعةً على الأرض كما هي، بلا أثر، وإمّا كما يقول الناس هُنا: «زي البسكوت وقعت وتطبّقت»، أو احترقت، أو أخذت نصيبها من الدمار بوقوع الجدران أو السقف أو فتح عددٍ من الفجوات في جوانبها جراء القذائف.

كنتُ أمشي في شارع «ملعب فلسطين»، وهو شارع يبعد عن مكان سكني مسافة 10 دقائق صارت صعبة، مع تهالك الأبنية وتدمير الشوارع بفعل الجرافات والدبابات. أنظرُ من حولي، أبحث عن أثر الدمار في المنازل. أقول هذا البيت «أكلَ قذيفة»، هذا تعرض للقصف، هذا جاءه رصاص الرشاشات، وهذا تأثّر من بقايا قصفٍ بجواره. لكنني، فجأةً وأنا أمشي وأتأمل، اكتشفت أن طريقتي في العدّ والملاحظة اختلفت. صرتُ أعُد المنازل الواقفة أو تلك التي لا ضررَ فيها، وهنا لا يوجد منزل لا ضرر فيه، وإنما أقصد بالمنزل الذي يصلح لأن يعيشَ الناس فيه. مثلًا: المكان الذي لا يتعدّى ضرره سوى وقوع حائط من الأعلى، أو سقوط شظايا على الجدران أو رصاصات فيه، أو احتراق غرفة، يبدو منزلًا جيدًا مقارنةً بغيره. لا مشكلة، يُمكن أن يعيشَ الناس فيه.

كُل شبابيك المدينة سقطت. حتى أنني سخرت من نفسي، إلى الدرجة التي اقترحت عليها أن أؤلفَ كتابًا وأسمّيه «لا شبابيك في منازل هذه المدينة»، على خُطى رواية خالد خليفة «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة». ففي بيتي، سقطت كل الشبابيك، باستثناء جزءٍ واحدٍ من أحدها، لا أعلم إلى الآن كيفَ حافظ زجاجه على صموده. لذلك، وعندما تدور في شوارع البلد، ستلاحظ شيئًا ثابتًا. إمّا شبابيك مفتوحة ونوافذ بلا شبابيك، أو شبابيك سقط زجاجها

وحوّلها أصحابها إلى «نايلون»، و«شادر» ليقي السُكان من البرد في فصل الشتاء. هذا ما فعلناه أيضًا.

لاحظت وأنا أمشي في الشارع نفسه، شخصين يمشيان بجانبي، لاحظا نفس المنزل الذي كان نظري يقع عليه. مبنىً صغير، لا يتعدى الطابقيْن مع حديقة خارجية، وقعَ بكلّ ما فيه، إلّا جزءًا بسيطًا بقي من طابقه الأوّل يبدو أنه يُمكن الدخول إليه. بالنظر للمنزل، لا يبدو أن فيه سليمًا سوى غرفة وما يُجاورها، حتى مدخل المنزل دُمّر بالكامل. قال الشخص الذي بجانبي، لصديقه: «والله هاد البيت منيح». ضحك صديقه. لكنهُ قال لا «بقول جدّ. بنفع يقعدوا فيه». نظرتُ إلى المنزل، اكتشفت أنني وافقتهُ الرأي. حتى لو كان المنزل مدمراً وهناك طريقة لدخوله، وفيه جزء لم يقع ركُاماً، يُمكن العيش فيه، فالشخص الذي يجلس على الكُرسي أمام بوابة البيت، يُنذر أن هناك من يسكنه واستصلحَ من بقايا رُكامه شيئاً للحياة.

شخصٌ آخر، في سوق «مخيم الشاطئ»، يبدو أنه اليوم الأوّل لعودته من الجنوب. خرجَ إلى بائع «خبز الصاج»، في المكان، الذي عادَ هو الآخر من الجنوب، وبدأ العمل لأوّل مرة منذ انتهاء الحرب، ليقول له إنّ الحياة أحسن. قال بكلمةٍ سمعتها كثيراً: «رُدّت الروح والله». نظرَ إلى الشارع. الحارة عادت إلى حركتها، الأطفال يلعبون، أشخاص هنا وغيرهم هناك. محلات تفتح، أناس يحاولون استعادة عملهم. حتى الناس وإن كانت تقضي مهامها اليوميّة في إزالة الركام وتنظيف المنازل ونفض الغبار وغسل الجدران، إلا أنها توحي بشيءٍ واحد. الناس تُحاول. الناس تعود إلى الحياة.

لا أزال حتى اليوم أمشي في شوارعها، أمر كلّ يوم بين الركام،

أستكشفُ تفاصيلها، لا أتذكر سوى عنوان قصيدة ت.س. إليوت «الأرض الخراب». هذه صارت الأرض الخراب. أتحسّرُ كثيراً وأتألم، كيف صارت هذه المدينة رُكاماً؟ كيفَ سلبوا الحياة؟

لكنني وبالمُقابل، لا أزال أسمعُ كلمات أصحابي، كلمات الناس. الكُل يُجمع على شيءٍ واحد. نحنُ نُحب الحياة، لذلك نحاول أن نعود. جولة واحدة في «سوق الصحابة»، الذي صار السوق الأشهر في المدينة الآن، نظراً لأن المنطقة التي فيه من أقلّ المناطق تضرراً خلال الحرب، تقول إنّ الناس تتعطّش للعيش واستغلال الحياة.

هؤلاء الذين يعيشون، يحاولون كلّ صباح من أجل أطفالهم وأهلهم ومستقبلهم. يحبون الحياة، لا يقبلون أن تكون بلدهم «الأرض الخراب»، يُريدونها «بلد الروح»، التي ردّت إلى أهلها بعد عودتهم.

غزة وأهلها العائدون، 25 / 01 / 2025 (من الانترنت)

2025-02-03

أفواجُ العودة

حانت لحظةُ العودة. طوفانٌ هائل من الناس مضى في طريقه، فور الإعلان عن انسحاب القوات الإسرائيلية. وبعد حوالي نصف ساعة، كان أوّلُ العائدين يدخل إلى مدينة غزّة. نام عشرات الآلاف على «تبة النويري»، وهي تلة صغيرة فاصلة بين «مُخيم النصيرات» و«المحافظة الوسطى» من جهة، وبين «وادي غزّة» من الجهة الأخرى، حيث قرّر الجيش الإسرائيلي أن هُناك ينفصلُ الزمان والمكان. ينفصلُ الزمان إلى اثنين، زمانُ الراحة والخير والهدوء، وزمانُ الموت والدمار والنزوح والقهر.

عادةً ما أُحبّ المشي، خاصة إذا كان بلا وجهة ولا هدف، فأمشي وأمضي فقط في طريقي، من دون انتظارٍ لشيء. لكنّ الطريق الذي مشيناهُ خلال الأشهر الستة عشر الماضية، كان أطولَ من أيّ شيء. أولاً كان إلى ما لا نهاية، في ظل حرب طاحنة، طويلة، وقاتلة. رحلة نزوحٍ صعبة، ثم سرعان ما صارت مؤلمة. فطريقُ البيت... على انتظار العودة.

حانت لحظةُ العودة، لحظةُ الحُلم التي لم يُصدّقها أحد، حتى نام عشرات الآلاف على «تبة النويري»، وهي تلة صغيرة فاصلة بين

«مُخيم النصيرات» و«المحافظة الوسطى» من جهة، و«وادي غزّة» من جهة أخرى، حيث قرّر الجيش الإسرائيلي أن هُناك ينفصلُ الزمان والمكان. ينفصلُ الزمان، إلى اثنين، زمانُ الراحة والخير والهدوء، وزمانُ الموت والدمار والنزوح والقهر. ينفصلُ إلى مكانيْن، مكانُ الخيم والتيه الطويل، ومكانُ الاستقرار والراحة.

كان الناس تائهين في المكان، الآلاف مسطّرين على الطُرقات لا يعرفون وجهة. بعضُهم أحرق خيمته ومضى، الآخرون فكّكوا الخيم، غيرهُم باع خيمته كي يوفّر تكلفة المواصلات حتى «التبة»، التي منها يبدأُ طريق المشي، فقد قسّم «اتفاق وقف إطلاق النار» العودة على طريقيْن: المشاة، عبر شارع البحر «الرشيد»، بأريحية وبلا تفتيش، والرُكّاب بسياراتهم وعرباتهم، عبر شارع صلاح الدين «الشرقي»، ويخضعون لتفتيشٍ بأجهزة وضمن رقابة مصرية، قطرية، وأمريكيّة.

حانت لحظةُ العودة، طوفانٌ هائل من الناس مضى في طريقه، فور الإعلان عن انسحاب القوات الإسرائيلية. وبعد حوالي نصف ساعة، كان أوّلُ العائدين يدخل إلى مدينة غزّة. لم تكُن الساعة قد تجاوزت السابعة والرُبع حين جرى الإعلان عن ذلك، فيما مضت خلفهُ أفواجٍ العائدين إلى المدينة، لتُعلن عن انتهاء أكثر من ستة عشر شهراً من النزوح والانتظار الطويل.

أجّلتُ عودتي حتى اليوم الثاني. حقيقةً كان تأجيلُها لأيامٍ أكثر، إذ توقّعنا أن يكون المكان مزدحماً لأيامٍ طويلة، ما يُصعّبُ مهمة المشي في هذا الطريق الضيّق، لكن رسالةً واحدة من شقيقي «مؤمن»، تقول في صباح العودة: «قوم ارجعععع.. كلّ الشعب رجع»، حمّستني، وحتى اتصالي بشقيقاتي النازحات، اللواتي عرفت

أنّهن مَضين في الطريق بسرعة مع بدء لحظة العودة، جعلني أتشجّعُ أكثر، فالاشتياق إلى الأهل والبيت فاقَ الحدود، وألمُ النزوح، والتفكير في أنّكَ عبءٌ ثقيل على العالم، يقتُلان.

المشهد مُهيب، ولا أعتقد أن شعبنا عايش مشهداً أعظم من هذا في تاريخه. رُبما عشنا مشاهد عظيمة وتاريخيّة، مثلَ لحظة الانسحاب الإسرائيلي من غزّة عام 2005، ودخول الناس أفواجاً إلى المستوطنات والمناطق المُحررة. عاش الناس أيضاً عودة المُبعَدين إلى الوطن بعد «اتفاق أوسلو»، عشنا كذلك كثيراً من المشاهد التي سترسخُ في أذهاننا، لكن هل لهذه اللحظة مثيل؟ مُستحيل.

لم أحتمل الانتظار أيّاماً أُخرى. توقّعتُ أن تبقى الأفواج بمئات الآلاف كُلّ يوم، لكن ومع ساعات النهار، حينما كانت بلدة «الزوايدة» حيث أعيشُ نزوحي، ومدينة «دير البلح» التي أقضي نصفَ يومي فيها للعمل وقضاء الاحتياجات اليوميّة، تفرغان من الناس. اختفت من جوانب شوارع المدينتين خيم النازحين وبسطات الباعة، ووسائل النقل، فكُل المواصلات - من مركبات ثقيلة أو خفيفة، أو توكتوك، أو عربات - تحملُ العائدين بأمتعتهم وعائلاتهم، من كبيرهم المُسنّ المريض حتى صغيرهم الرضيع، متجهين إلى الشمال.

هذا «موسم الهجرة إلى الشمال»، كما سمّاها «الطيّب صالح»، وهُنا ليست هجرة، إنها عودة، وإن كانت هجرة، فهي هجرة إلى الألم والنزوح والاغتراب الداخلي والتفرّق. هجرة إلى البيت والأحبة، هجرة إلى الأُم وحضنِ الحبيبة والوطن المقصيّ بفعل الحرب والاحتلال.

حجزتُ سيارةً تقلني منذ فجر اليوم الثاني من العودة، حتّى «تبة النويري»، حيثُ نقطة الانطلاق في المشي. كان السائق «أبو

الوليـد» أنشـطَ مـني. لم ينـل مـني الليـل، فاسـتيقظتُ مُبكـراً منـذ منتصفه، قلبي قلِق، مُرهف، متحمّس، خائف. مشاعر مختلطة، لا فِكاك منها. لا أعرف، هل أنام لأرتاح وأهيئَ نفسي لرحلة العودة والمشي الطويل، أم أبقى مستيقظاً لأفكّر بحماسي للساعات القادمة؟ نمتُ فقط قبلَ موعد العودة بساعة، حتى استيقظتُ وقد اتصلَ بي السائق سبعَ مرات، ليقول إنه ينتظرُني.

وصلتُ إلى نقطة الانطلاق، وهناك كانت البداية. أفواجٌ كثيرة تنطلق إلى «الشمال»، وإن كانت أقل من الأمس، أوّل أيام العودة، إلّا أنها أعدادٌ كبيرة مقارنةً بهذا الوقت من اليوم. إنها السادسة والنصف صباحاً، وهؤلاء الناس مثلي، لم ينتظروا كثيراً ليُشبعوا لهفهم للعودة.

رأيتُ ما رأيت، في نفسي وفي غيري. نحنُ نعود. نحنُ نجري بقلوبنا قبلَ أقدامنا. نهرولُ بالحُب والأمل، نمضي بلهفة المُشتاق إلى الأهل، وإلى المدينة. لذلك، رأينا ذاك الذي سرعان ما دخلَ إلى غزّة حتى سجدَ على أرضها، وغيرهُ الذي ظهرَ بمقطعٍ مصوّر وهو يقول لصديقه: «احنا دخلنا غزة. يا الله، هينا رجعنا». هكذا كُنا. نمضي بلهفة، نمشي بسرعة، على الرغم من حملنا الثقيل.

كنتُ قلقاً من المشي في هذه الرحلة الطويلة التي تصلُ إلى تسعة كيلو مترات، فقرّرنا تخفيف الأحمال. حقيبتيْ ظهر، واحدة لي وأخرى لزوجتي، وحقيبتيْن صغيرتيْن فيهما أهم الاحتياجات. لا طعام ولا مواد تنظيف، كما قالت أُمي التي أكّدت: أن «الخير كله موجود عنّا. بس تعالوا». وهنا تذكّرتُ صوت الفنان العراقي «كريم منصور»، الشجي وهو يقول: «بس تعالوا وفرحوا روحي عذبتني تريدكم».

تقاسمنا الحمل معاً. حملتُ «سلوان» - طفلتي الصغيرة - بعض الوقت مع حقيبتي، وبعضاً آخر حملت كلّ الحقائب، حينما تمشي «سلوان». أحياناً أحملُ الحقائب و«سلوان» معاً. لم أشعُر بالتعب، لا أعرفه ولا يعرفني.

إنها الرحلة الأسهل. الرحلة الأخف على قدميّ اللتين لم تتعبا.

رحلةُ التناقضات.. أُحب المشي، أتعبُ منه، لكني هنا لا أتعب. لا أُريدُ الراحة، فقط وقفتُ قليلًا خمس دقائق قُرب شاطئ البحر لتأكلَ الطفلة الصغيرة بعضَ البسكويت الذي حملتهُ لها، ولا أخفي أن جزءًا من ذلك لأستعيدَ ذكريات النزهات المسائية على شاطئ البحر في هذا المكان. شاطئ بحر مدينة «الزهراء»، المدينة التي تحوّلت لاحقًا إلى «نيتساريم». منطقة هادئة جداً، خفيفة، قد تمشي إليها من مدينة غزّة في دقائق قليلة، تجلسُ على شاطئها، تُراقب الغروب والبحر الوديع، بلا ضجّة. إنها ذكرياتٌ تحوّلت إلى رماد، مثلَ رماد المنازل وبقايا المدينة، التي خلّفها القصف الإسرائيلي على مدار سنة وأكثر.

تزيدُ التناقضات. لا أعرفُ لها حلاً. لا أتعب بتاتاً. أحملُ «سلوان» على كتفيْ كأنني في مظاهرة أو حفلة شبابٍ غزّاوية، وأمضي. الناس من حولي أعداد كبيرة. هذا الذي يمشي مع طفلهِ وزوجته، وهذا الذي يمضي مع عائلةٍ كبيرة. هذه عائلة خفّفت من حملها، ففضّلت أن تمضي بأقل القليل، وغيرها تمشي بأحمالٍ كبيرة. الأب يحملُ الفراش والأغطية، الأطفال يحملون حقائب صغيرة، والأُم تحملُ معها بعضَ الطعام.

مشاهدُ عديدة رأيتها. أشخاصٌ لا أعرف كيفَ تمكنوا من كلّ هذا الحمل. ناسٌ يجرّون من خلفهم عرباتٍ صغيرة، أو بقايا بلاستيك

أو أشياء ربطوها بحبلٍ كبير طوال الطريق، وحطّوا عليها كثيراً من الأحمال وجرّوها. كل هؤلاء أفهمهم. هؤلاء فقدوا بيوتهم، فقدوا كلّ شيء، لم يبقَ لهم إلا بقايا الخيمة التي عاشوا داخلها في الجنوب، يحملونها معهم إلى الشمال، كي يعيشوا فوق الرُكام.

مشهدُ العودة، رغم فرحه وجماله، وكونه المشهد الأعظم بالنسبة إلى الناس، إلّا أنهُ يحملُ كثيراً من الألم. كُلنا نمضي بأقدامنا وبإرادتنا الكاملة، كي ننصهر في آلامنا. نغرقَ فيها، كمن يقولُ للبحر خُذني، وإن كنتُ لا أعرف السباحة.

بعض الناس رموا أمتعتهم، ألماً من عدم القدرة على حملها. البعض الآخر قرَر افتراشَ الطريق بفراشه الذي يحمله، كي يُطعم أطفاله. طفلة أُخرى كانت تبكي بجانبنا، لا يتجاوز عمرها السنة والنصف، ومع البرد الشديد في صباح يومٍ كهذا، على شاطئ البحر، قرّرنا أن نُعطيها جوارب صغيرة كنا نحملها، قُلنا لأمها أن تأخذها لتدفئ قدمي الطفلة.

ساعتان وأكثر قليلًا، حتى دخلنا إلى مدينة غزّة. لم أعرف ملامحها، لم أعرف أين أنا وأيُّ مفترقٍ هذا الذي أقفُ عنده، إلا من خلال مئذنة جامعٍ شهير، ظلّت بقاياها أمامي بعد تدمير الجامع.

كنتُ أخبئ المفاجئة لأهلي، يعرفون أنني سآتي اليوم، من دون معرفة الموعد. وصلت السيارة على المفترق الذي تواجدتُ عليه فورَ وصولي، وفيها شقيقي الأكبر «مُحمّد». أخذنا نتجوّل قليلًا بالسيارة في شوارع المدينة، التي رأيتُها من خلف الأطلال قبل دخولي أوّل شوارعها، ركاماً ورماداً.

لم أعرف شيئاً في غزّة، إذ بدت مدينة أشباح. كانت أحياؤها محروقة

ومدمّرة بكلّ ما فيها. لكنني منّيتُ نفسي وهدّأتُها بلقاء الأهل، الذي كان مؤلماً، بقدر ما يحملُ من الفرح. بكيتُ قليلاً على كتفِ والدي، وفي حضن أُمي. لم أحبس دمعي، ولم أُصدّق نفسي.

تجوّلتُ قليلًا في المبنى الكبير الذي عشنا فيه، في بيتي وبيوت إخوتي وبيت أهلي، أو «بيت العيلة» الكبير، كما يعرفهُ الناس. رأيتُ الشقق المدمّرة فيه. المطبعة الكبيرة التي أسسها والدي واحترقت، وصارت بقايا صغيرة سوداء. رأيتُ سطح المبنى الذي تم تدميره بالكامل. دخلتُ إلى بيتي الصغير المحترِق، تجولتُ قليلاً لأحاول تذكّر أغراضي التي نسيتُها في رحلة النزوحِ. لم أعرف شيئًا، لم أشعر بشيء.

وأنا في الأعلى بعد جولةٍ طويلة، أحاول التصديق، أحاول الاستيقاظ. فجأة أقولُ لنفسي: أين أنا؟ هل أنا أحلُم؟ متى أستيقظ. يبدو أنني لن أستيقظ من هذا الحُلم، فأنا في غزّة.

تصوير: علي نور الدين - فلسطين

2025-01-16

وقت طويل للبكاء.. وقت أطول للرثاء

سيكون الرثاءُ عاماً. سيرثي الناس في الشوارع والبيوت، وفي كلّ مكان، ناسهم الشُهداء. سترثي المنازل أهلها، والأنقاض مفقوديها، والشوارع ذكرياتها.

لا وقتَ للنهايات، عند هذه النهاية التي جاءت إلينا بطيئةً سريعة. بطيئةً طال انتظارهُا بعد أكثر من خمسين ألفًا من الأرواح التي غادرتنا، ومئات الآلاف من الكوارث والمآسي والقصص التي وضعت ندوبها في قلوبنا إلى الأبد. سريعةً كما لم نتوقّع، وكما لم يتحمّل يأسنا وطأة النهاية.

ليسَ هذا الوقت إلى النهاية، إنها نهايةُ إطلاق النار والموت العادي السريع بالقذائف والصواريخ، وبدايةٌ أُخرى لموتٍ آخر، لحربٍ أُخرى، يموتُ فيها الناس بطيئاً، ضحايا لقهرهم غير العادي، وجروحهم التي لن تنتهي في يومٍ وليلة.

لا أُخفي وطأة اللحظات الأخيرة على نفسي، رجفةٌ في الجسد طوال الليل، ليست من البرد. رجفةٌ من الخوف والقلق والترقّب. رغبة طويلة في المشي والدوران حولَ نفسي، لعلّي أقهرُ التفكير الذي

ينخرُ في الرأس كمطرقة حديديّة، تتجاوزُ صوت الصواريخ والقذائف من حولي. خوفٌ من اللحظات الأخيرة، من لحظة النهاية، من القادم المجهول المعلوم. المجهول لخوف الإنسان من لحظةٍ حاسمة طالَ انتظارها، وخوفهِ من بداية الأشياء والتفاصيل الطويلة التي لن نستوعبها بعد هول المذبحة. المعلوم لارتباطه بالشوق والعودة واللقاء بعد انتظارٍ طويل، للأهل والأحبة والناس والذكريات والبيت والمكان.

فينا جميعاً رغبةٌ طويلة في البكاء..

انفتحت الرغبة كطاقةٍ كبيرة من القهر في الإعلانات السابقة عن ترقّب الصفقة والموافقة عليها، خصوصاً في أيار/مايو الماضي. وها هي تنفتح، كُلما طلَ خبرٌ جديد، واحتفلَ الناس وصفّقوا وهللّوا. رغبة في البكاء الطويل، بكاءٌ مؤجّل لأكثر من 460 يوماً، بكاءٌ لم نبكه، صارت دموعهُ متحجّرة، لكنها ذائبة في اللحظة الحاسمة. رغبة ملأت عيونَ الجميع. الكُل يبكي، والكل حرّر الدموع من سجن الحرب. حانت لحظتها.

هذا وقتُ طويلٌ للبكاء.

ووقتُ أطول للرثاء، لكن من نرثي؟ الشهداء الكثيرين الذين بقيتُ أكثر من يومَيْن أحاول تعداد أسمائهم، فيخرجُ لي أحدهم فجأةً من نافذة عقلي، وأنا في السيارة من مكانٍ إلى آخر. يخرجُ غيرهُ سريعاً كي يقول لي: لا تنسني من الرثاء، أنا هُنا، أنا مِتُ، لكنني لستُ رقماً بين كلّ الأرقام التي تعرفها، أنا أنا، كما تعرفني.

من نرثي؟ وهذا البُكاء المؤجّل اللا متناهي لن يكفي لأسمائهم، فكيف يكفي لأحلامهم وذكرياتهم وقصصنا معهم، وضحكاتهم

وتفاصيلهم الجميلة التي صارت تأسرنا حتّى في قلب عتمة الخيمة والنزوح والمأساة.

من نرثي؟ ومن نترك؟ من نُعطيه حقه؟ وهل تكفي الكلمات؟

هل أرثي أحمد عبد الرحمن، زوج أختي، الرجل الشهم الذي رحلَ في أول أسبوعٍ من الحرب حين كان في عمله داخل سيارة الإسعاف، ذاهباً لينقذَ النازحين الفارّين من الموت يلاحقهم على «طريق صلاح الدين». لم يكتفِ الموت بذلك، لاحقهُ هو أيضاً، ويلاحقنا إلى اليوم. هل أرثيه وأنا الذي لم أكُن قوياً بما يكفي، لأسندَ ابنهُ «الجدع» مُحمّد، ذي الثلاثة عشر عاماً، حين عرف برحيل والده، وهو معي، ولم يتحمّل صدمةً غياب الأب.

هل أرثي إبراهيم لافي. إبراهيم الصديق الوديع الجميل. رأيتهُ للمرّة الأخيرة يوم الخامس من تشرين الأول/أكتوبر 2023، مليئًا بالضحكات والفرح والمرح، أحملُ لعبة أطفالٍ صغيرة أمامه تُخِجُ الفقاعات، وأسخرُ من هذه التفاصيل البسيطة، فيضحكُ ويصوّرني صوراً لن آخذها، لأنها رحلت معه؟ هل أرثي ضحكته الطفولية، إبراهيم الذي لطالما سخرتُ من عُمره، فهو الشاب المثابر والقوي والمجتهد. أسألهُ «انت مواليد 2002 بس؟ وبتعمل كل هادا!».

هل أرثي هيثم عبد الواحد. هيثم الجميل. أبو النمر، أو «الكزن» كما كُنا نناديه. هل أرثي آخر لقاءٍ بيننا، الخميس الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر، في كافيتيريا «الباقة» الشهيرة، قبل أقل من 84 ساعة على غيابه، نمسكُ بالأرجيلة نفسها، نشربُ منها، نتحدّث ونلعب الورق، ونضحكُ كثيراً على شاطئ بحر غزّة، من دون أن نعرف أنها اللحظة الأخيرة معاً. هيثم الذي لا نعرفُ مصيره حتى الآن، لا نعرف، هل كان حياً أم جثةً؟ هل اعتقلوه أم قتلوه؟ فهو مفقودٌ منذ ساعات صباح «السابع من أكتوبر»، مع الصديق

نضال الوحيدي، حينما كانا يؤديان عملهما الصحافي بتوثيق المشهد شمال غزّة.

أحياناً أشعرُ أننا كنّا في لقاءٍ أخير معهُ، لقاءٍ مثالي، كما تستحقها هذه الصداقة الخفيفة. أصدقاء من الشباب والفتيات، نجلسُ بعد يومٍ طويل من العمل والتعب، نهاية أسبوعٍ طويل. نُنهي جلستنا عند المغرب، ونُغادر كل إلى مكانه، إلى وداعٍ لم نعرف أنّهُ الأخير.

هل أرثي الدكتور رفعت العرعير، أبو عُمر، الذي كان أخاً كبيراً. أعرفهُ منذ ثلاثة عشرَ عاماً، لم يكُن فيها إلا ناصحاً لأصدقائه، يمدُ اليد إليهم. متصدقاً معطاءً، لا يتوقّف عن الخير، أقول ذلك، وأعرفه في أشياءَ لا يعرفُها غيري. ليس كلاماً منمقاً، ولا يحتاجُ على شهرته بعد رحيله إلى كلام مثلَ هذا، فإن أقل من يحكي عنه، إنهُ المُعلم والدكتور المحبوب بين طلابه، إنهُ القدوة، ولم أعرف قدوةً مثله أبداً.

هل أرثي رشدي السراج؟ رُشدي الهادئ الحليم البسيط، الذي يضحكُ بخفّة، كأنّما يُمسك ضحكتهُ ويمنعها من أن تطول، إلّا أنها طبيعيةٌ جداً، عفوية، خفيفة. ولا أنسى أنني كنتُ موعوداً بجولةٍ على الخيل، معه ومع هيثم وإبراهيم. تحدثتُ إلى هيثم مرةً عن رغبتي في ركوب الخيل وتجربته، وهم الثلاثة كانوا يقومون بجولاتٍ مثل هذه. قال إن الخريف أفضل وقتٍ لذلك، قد نفعلها في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. جاءت الحرب، اختفى هيثم، ورحل إبراهيم ورُشدي، ولم أحظَ بهذه الفرصة المستقطعة من فكّ الحياة.

من أرثي؟ وهل أرثي أحمد بدير، أحمد المندفع، الحالم، الذي لطالما كانت أحلامه أبسط من أن يتحمّلها العالم. انقطعنا طويلاً منذُ انتقالي إلى عملٍ آخر بعد 2020، لتقلَّ الصداقة والتواصل، لكنهُ يعرف كثيراً، يعرف قدرهُ في قلبي. رحلَ أحمد وأنا المتألّم على عدم

وجود كلمة أخيرة، أو عتبٍ أخير.

ماذا أحكي أكثر؟ هل يُجدي الحديث إن رغبتُ في الكتابة عن عمّتي فاطمة. عمتي التي وُلدت سنة النكبة، وماتت في نكبةٍ أُخرى، في شمال غزّة، تحت وطأة الجوع والحصار والمرض وانعدام الأدوية وقلّتها. ماتت بألمها من المرض الذي عانت منهُ طويلاً. كنت من الأقرب إليها، أعرفها أكثر مما يعرفها غيري. تُناديني وتصرخُ في ألمها، فأنزل من خمسة طوابق إلى بيتها لمساعدتها في الفجر، كي تتوضأ وتصلّي صلاتها وتقرأ قرآنها وتأخذ أدويتها. رحلتْ، رحلت بكل بساطة وأنا بعيد، رحلت في الشمال وأنا نازحٌ في الجنوب، أعاني وطأة البُعد. رحلت دون أن أودّعها، دون أن أُلقي النظرة الأخيرة، فكيفَ أرثيها؟

هل أرثي حمزة الدحدوح؟ ابن وائل، الذي رأيتهُ قبل يومَيْن من رحيله، اتفقتُ معه على أن ننشر قصص أهله الشهداء على منصة الشُهداء، وليساعد في نشر المنصة عنده. لم أستوعب أنه رحل بعد وقتٍ قصير، دون أن نُتمّمَ المُهمة. رحل سريعاً.

هل أرثي رمزي مقداد، ابن خالي الذي غادر نهاية الحرب، بعد أن كان يَزحُ ويحرح في المجموعات الإلكترونية للعائلة، ساخراً من هذا الوضع، مفتعلاً المشاكل هنا وهناك. جاء خبرهُ سريعاً، قالوا: «رمزي أُصيب». لم نستوعب الأمر، حتى قالوا: «رمزي استشهد». واستشهد فعلاً. استشهد ليلحق بابنه وابنيْ شقيقه الذين رحلوا بداية الحرب. لم تُخطئهم قذيفةً من الدبابات الإسرائيلية حين كانوا ذاهبين لشراء بعض المصّاص والسكاكر في «حي الشيخ رضوان» قُرب بيتهم.

كيف أرثي ميسرة الريّس؟ ميسرة الطبيب المُبدع والناجح. غادرنا، سافر إلى بريطانيا، عادَ محملاً بالحُب والأمل والعمل. عاد طبيباً

متفوقاً ومُبدعاً، مع لورا، زوجته التي عرفها هُناك. تزوّج وكان يبدأُ حياته كما يجب. رحلَ ميسرة. كان يقول للناس إنه يشعر أنه سيموت فجأةً، ومات في بيتهِ فجأةً. رحلَ ولا أتذكر، إلا آخر لحظة رأيته فيها، قبل الحرب بشهريْن، عند الحلاق نفسه الذي كنتُ أحلق شعري عنده، ابتسمنا وسلمنا على بعضنا، كأنهُ وداعٌ أخير.

ماذا عن وائل أبو طه؟ هل تعرفونه؟ بالتأكيد لم يعرفهُ أحدٌ ممن حولي. هذا الرجل الأصيل، الذي عرفته أسبوعاً واحداً في مدينة «رفح»، حيثُ كنتُ نازحاً هناك. احتجتُ من أجل تنفيذ نشاطٍ إنساني لتوزيع المساعدات على الناس، إلى مكانٍ للتنفيذ، فتحَ بيتهُ لنا، دون كلمة. قال لي قبل يوم استشهاده: «وقت ما بدك أي شي بدك ياه احكيلي، تعال». رحلَ الرجل في قصف مسجد «علي» في شهر كانون الأوّل/ ديسمبر، ولم أحظَ بفرصةٍ كي أعرفهُ أكثر، لكنني رأيتهُ في وجوه أبنائه الذين رأيتُ تربيته في معاملتهم، يخدمون الناس، يقومون على مساعدتهم، يفرشون الخيم للنازحين، يساعدون هنا ويمدّون اليد هُناك. كانوا كأبيهم، كما عرفتهُ أسبوعاً منهُ، وعرفته منهم أشهراً.

لو قلتُ عن خليل أبو يحيى، خليل البطش، لن أستطيع أن أُكمل أكثر من قصتهُ الشهيرة. خليل أُصيب بالسرطان فجأةً قبل نحو ثلاثة أعوام، تعبَ وصار مرهقاً، قاومَ المرض. انتقل بصعوبةٍ إلى القُدس للعلاج في مستشفياتها باعتبار أنّها أفضل من غزّة، المقطوع عنها الدواء والمعدات والإمكانات الصحيّة. كانت تلك اللحظة، أعظم لحظة في حياة خليل. قال حينها إنه لو كان وقت موته قد حان، فسيكون راضياً جداً، لقد أخذ كفايته من العالم بأن دفعهُ المرض إلى زيارة القدس ورؤيتها ولو مرّةً في حياته.

لم يُت خليل من المرض، كان إصرارهُ على الحياة أكبر وأعظم من ذلك. أكمل حياتهُ ليبقى ويروي للناس عن لحظته التاريخيّة حينَ رأى القُدس. كان معي في دراستي في برنامج إعداد السياسات والتفكير الاستراتيجي، وهو البرنامج الذي مكّننا من القدرة على كتابة الأوراق والدراسات والأبحاث. كان مثقفاً حقيقياً، يؤمن بجدوى المقاطعة وأحد أعضاء حركتها العالميّة، لم يتوقّف عن المساهمة بلغته الإنجليزية الإبداعية في دعم فلسطين. استشهد خليل في حرب الإبادة، وقد كان مثقفاً كما تحتاجُه فلسطين.

عمّن سأحكي أيضاً؟ من سنرثي؟ هل أحكي عن عبد الله مقداد، الذي استشهد قبل نحو شهر تقريباً. كان ينتظر نهاية الحرب أيضاً مثلنا. دخلت الطائرة على البيت، ألقت قنبلةً عليه ورحلت. استشهدت أُمه، أُم أحمد في بداية الحرب، مع طفله وزوجته. ويبدو أنّ الحياة ما كانت لتكون طبيعيّة إن لم يرحل عبد الله ويلتقي بهم في الجنة.

في أحيانٍ كثيرة كان الناس يموتون مجموعات، عائلاتٍ كاملة، هل يسهلُ الرثاء في هذه الحال؟ أن ترثي عائلة؟ أم يبدو صعباً؟ أحيانا أخرى كانوا يموتون عائلاتٍ متفرّقين. مثل: عبد الله ورمزي وغيرهم الذين رحلوا ورحل قبلهم أحدٌ من أهلهم. كذلك رحلت شيماء ابنة الدكتور الشهيد رفعت العرعير مع ابنها وزوجها، ليلتقوا به «فوق». كذلك كان رمزي الذي التقى بابنه «فوق» أيضاً.

كذلك هديل أبو سعدة، إحدى أعضاء «حملة الإحسان التطوعيّة» التي لا أعرفها إلا بسيطة هادئة. استشهدت هديل في أوّل أيام الحرب، ببساطة وبسرعة، في يوم زفافها المُقرَّر. كانت قد خطبت قبل وقتٍ قصير، وفي ذلك اليوم بدلاً من أن تلبس فستانها، ألبسوها الكفن. استشهدت مع أمها وأخواتها وشقيقها. رحلوا

عائلةً واحدة كاملة، لكن اللقاء كان «فوق» مختلفاً أيضاً. ففي المكان نفسه الذي استشهدت فيه هديل مع عائلتها، كان والدها قد استشهد عام 2009 في الحرب الأولى.

لن أنسى ولاء سعادة، الفنانة والإنسانة. قبل أسبوعٍ واحد من استشهادها كلّمتني ولاء، طلبت مني طلباً قد يبدو الأكثر إنسانيةً وسط هذه المأساة. قالت إنها تُريد أن تُشارك في أحد أنشطة «حملة الإحسان» التي تقوم على مُساعدة النازحين والمتضررين. وعدتها أن يكون ذلك قريباً في أيّة فرصة مُمكنة، حين يتم تنفيذ الأنشطة في وسط قطاع غزّة. رحلت ولاء بعد أيامٍ قليلة، لم يترُك لها الموت مجالاً لتحظَ بهذه الفرصة.

كانت ولاء فنانةً مُبدعة، مخرجة أفلام حالمة. قليلون هم مخرجو الأفلام في غزّة، ولذلك فإنّ المخرجين عادةً، أولئك الذين يخرجون عن النمط الطبيعي ويحاولون فعل شيء غير عادي وسط هذا البلد وهذه الظروف، هم بالتأكيد مميَّزين. كانت هذه ولاء، التي لا أعرفها سوى ضاحكة مُبتسمة. رحلت ولاء وأبقت في قلبي ندامةً على عدم الاستعجال في تنفيذ نشاط لتُشارك فيه!

بالتأكيد سأتحدّث عن آية شبير، وهي شخصٌ لم أعرفه إلّا إلكترونياً في تويتر. رحلت آية التي كانت بسيطةً، ساخرةً من الحياة بشكلٍ غير عادي. كانت آخر أمنياتها أن تأكل «الشيبس» وتحظى بكأس شاي من دون قلقٍ، وبعيداً عن صوت الطائرات. كذلك كانت عُلا عطّا الله، الصحافية والكاتبة. استشهدت فجأةً، بعد أن كانت كلماتها تنتشر في كلّ مكان على منصة «إكس» من حولنا، وهي تحكي شهاداتها عن الحرب.

وهذه فرصة لأحكي عن ندا دهشان، ندا الأنيقة الضاحكة، لم أحكِ مع أحدٍ من أصدقائها، إلّا شبّهها بأنها «جنة» تمشي على الأرض

بوداعتها وبساطتها.

علّني أتذكر أسماءً أخرى من الجيران مثلًا، ثائر عمر، محمد عقيلان، محمد الجبيري، إبراهيم مقداد، زكريا صلاح وأطفاله، وأم إبراهيم الحلبي، جارتنا التي استشهدت على طابور المخبز منتظرةً دورها في توصيل الخبز لأحفادها في الشمال. هل أتذكر أهل أصدقائي الشُهداء؟ أهل محمود أبو حمادة الذين رحلوا في قصف بيته، أو أهل لمى الحاج التي ودّعت شقيقها مع شقيقتها وزوجها وأطفالها. أهل عبد الرحيم عروق، الصديق الحبيب الذي رحلت والدته مع أخوته، من دون أن يراهم، فهو في بلادٍ وهي في أُخرى. هل أتذكر أهل أنغام؟ وأهل كل الناس الذين حولي، ممن حظوا بوداعٍ وممن لم يحظوا؟

الرثاء طويلٌ طويل، لا نهاية له. قد يقول الشعراء والكتّاب والناس الكثير فيه، ولا يستطيعون إيفائه الوقت والكلام المناسب. سيكون الرثاءُ عاماً. سيرثي الناس في الشوارع والبيوت وفي كلّ مكان، ناسهم الشُهداء، سترثي المنازل أهلها، والأنقاض مفقوديها، والشوارع ذكرياتها.

سنترك كلّ شيءٍ، ونتفرّغ لبُكاءٍ طويل، ورثاءٍ أطول.

سانتا كلوز يطل على غزة المدمرة

2025-01-02

عامٌ ليسَ لنا، أم عالمٌ ليس لنا؟

تَحدّث الناس وقالوا كلماتهم، الكُل يتمنّى أن يعود إلى مدينة «غزّة» أو شمالها، أن يعودوا إلى بيوتهم ولو كانت فوق الرُكام. كلماتٌ كثيرة قُلناها جميعاً، كل يوم نتحدّث بها، إلى درجة تخيّلت فيها أنّ الناس نسيت الحرب، ولم تعُد تتمنّى نهايتها، بقدر حاجتها إلى نهاية مأساة النزوح الكارثيّة، التي فكّكت المجتمع، وقتلت أرواح الناس وهم أحياء.

«نفسي أرجع ع غزّة».

«نفسي أرجع ع البيت».

«نفسي أرجع ع بيتي ولو رُكام، أحط خيمتي وأقعد فوقه»..

ثلاث كلمات، موحّدة، واضحة، لا جدال فيها. سمعتها خلال جولة داخل أحد مُخيمات النازحين، في مدينة «دير البلح»، في إطار العمل. تحدّثت مع أطفال في المخيم، وأطفال في الخيم التعليميّة، حيث تحوّلت الدراسة إلى خيمٍ بدلاً من صفوف المدارس، مع نساء ورجال وشبّان وفتيات، بسؤالٍ واحد: ما هي أمنيتك في السنة الجديدة؟

أعـرف الكلمـة، أعـرف الجـواب. أسـأل وأنـا أُدرك وأسـمع في أّذني إجاباتهـم قبـل أن يقولوهـا، لكنّـني أُصرّ عـلى أن أسمـعَ مـن جديـد، علّـني كُنـتُ أوهـم نفـسي بهـذه الإجابـات في داخـلي، علّهـا كانـت إجاباتُ اللاوعي، في عقلي، أو رُبما في قلبي الـذي صار قتيلًا في هـذا العـام.

تحـدّث النـاس وقالـوا كلماتهـم، الـكُل يتمـنّى أن يعـود إلى مدينـة «غـزّة» أو شمالها، أن يعـودوا إلى بيوتهـم ولـو كانـت فـوق الرُكام. كلماتٌ كثيرة قُلناها جميعاً، كل يـوم نتحدّث بها، إلى درجة تخيّلت فيها أنّ النـاس نسيت الحـرب، ولم تعُد تتمـنّى نهايتها، بقـدر حاجتها إلى نهايـة مأسـاة الـنزوح الكارثيّـة، الـتي فكّكـت المجتمـع، وقتلـت أرواح النـاس وهـم أحيـاء. تذكـرتُ نفسي، وأنـا أقـول: «نـروح ع غـزّة وتكمـل الحـرب». نتمـنّى لـو تكتمـل الحـرب هُنـاك، نمـوت في بيوتنـا، بـين أهلنـا.

رأسُ السـنة الميلاديّـة، حـدثٌ مُمـيز، نهايـة لـشيءٍ وبدايـة لآخـر. قـد تبـدو الأيـام أحيانـاً عاديّـة، لا اختـلاف بـين وقـتٍ وآخـر، ولا يـومٍ وغـيره، إلّا أن النـاس كُلها تستشعرُ النهايـة في أواخـر كانـون الأول/ ديسمبر مـن كلّ عـام، تتهيـأ لهـذه النهايـات، متمنيـةً أن يـأتي الجديـد بجديـد. شـوارعُ «غـزّة» تمتـلئُ بشـعورٍ مُختلـف، تظهـرُ فيـه هـذه النهايـة عـادةً.

مفترقـاتٌ رئيسـية تتزيّـن، مفـترق «أبـو طـلال» أو «العائـلات»، مُفـترق «ضبيـط»، مُفـترق «الجامعـات»، مُفـترق «السرايـا»، مُفـترق «الصناعـة». بعضُ المحلات تتحلّى بأثواب «سانتا كلـوز». البهجة تملأُ وجـوهَ النـاس الخارجـين مـن محـل «سفير الحُـب»، أشهر محـلات بيـع

الورود في المدينة، وبالتأكيد أغلاها، لكنّهُ أجودها. الناس تتكّدسُ عند بائعي «الفلافل»، و«الحُمص»، والـ«هامبرغر» و«المُعجنات». عائلات تخرجُ من محلات بيع الشوكولاتة والحلويات، وعشرات السيارات تصطفُ أمام «مدينة اللحوم»، أحد أشهر محلات التسوّق في السنوات الأخيرة في «القطاع».

بهجة لا تعرفها إلّا «غزّة»، بهجة لا يعرفها العالم، فهو «أبو البهجات الكبيرة». إنها بهجة صغيرة جداً «ع قدّ الحال»، كما يرى الفلسطينيّون في هذه المدينة حياتهم. «ع قدّ الحال»، بسيطة، سريعة، عادية جداً. سلسلة من الألم المغمّس بالأفراح الصغيرة والانتصارات الحياتية اليوميّة، بعروض البضائع الرخيصة والإعلان عن صرف رواتب الموظفين، وصرف الدُفعات المالية للجرحى، أو الإعلان عن توزيع المواد الغذائية على الأسر الفقيرة.

بهجة، ليست إلّا لعالم «غزة»، لا يعرفها العالم الآخر. بهجة «ع قد الحال»، يأخذُ فيها الناس أطفالهم إلى «كابيتال مول»، أشهر مركز تسوّق في «القطاع»، لا يشبه أبداً، بحجمه الصغير وملامحه البسيطة، مراكز التسوّق العالمية في إسطنبول ونيويورك والقاهرة ودبي. إنهُ يُشبهها في أنظار أهل «غزّة»، لكنهُ أبسط من تلك التي يرونها في أفلام «هوليوود» وأفلام «السُبكي» المصريّة. لكنهُ أيضاً «ع قدّ الحال». يأخذُ الناس أطفالهم إليه، يأخذون صورةً أمام مجسّمٍ كبير لعنوان العام الجديد، آخرها كانَ عام 2023، أو أمام مجسماتٍ لموزّع الهدايا، الذي لم يعرفوهُ أبدًا سوى في أفلام «ماشا والدب»، وباقي مسلسلات «سبيستون».

بهجة جميلة، تختلطُ بهموم الناس في «غزّة»، وهي أيضاً هموم «ع قد الحال»، هموم عاديّة، لا يعرفها عالم «البزنس» في «وول

ستريت» ولا المحتفلون بألعابهم الناريّة قُرب «برج خليفة»، ولا في سويسرا وفرنسا. همومٌ بسيطة، كأن يرى أحدُهم الاحتفال بال«كريسمس» ورأس السنة، خلالً في نمط الحياة المُحافِظة للمدينة، فيكتُب منشوراً يُعبّر فيه عن غضبه من هذه المشاهد «الخادشة». في الخلفية تستمرُ الحياة، عاديةً طبيعيّة، يرى الناس المنشور، يُعلّق من يُعلق، يمرُ أحدهم بجدال، ثم يحتفلُ آخرون ببداية السنة، كأنّ الهمومَ تمضي مع اليوم.

بهجة تمضي بسرعة، مع انتهاء الألعاب الناريّة وإطلاق النار لمجموعة من المُحتفِلين في شوارع المدينة، في «الجندي المجهول» وشوارع «حيّ الرمال»، الحي «الأرقى» (بمفهومهم) والأكثر جذباً للناس إلى أسواقه ومحلاته. تنتهي بسرعة، بعد أن تُعلن الثانية عشر منتصف الليل، مع بدء العام الجديد، تنتهي ويمضي الناس إلى إجازاتهم، وآخرون إلى أعمالهم في الصباح التالي.

إنها البهجة التي لا تخدشُ شكلَ العالم ولا نمطَ حياته. البهجة التي يظنُ بعضُ أهل المدينة أنها ليست واجبة، فينامون مُبكراً، كأنّ لا شيءَ يحدُث في هذا المكان. «غزّة» هي سيّدة البهجات الصغيرة، كانت ولا تزال، لكنها بهجاتٌ استكثرها العالم على أهلها، فسلبها منُهم أيضاً.

عامٌ آخر، يبدأ في قلب الحرب، في ظروفها، في حياة الخيم والنزوح، لكنُه يمرُّ الآن أكثر وطأةً، وأكثر صعوبةً. نازحون بمئات الآلاف من مدينة «رفح»، المدينة رُكامٌ وحُطام، نازحون غيرهم من «جباليا»، و«بيت لاهيا»، و«بيت حانون»، من أرجاء «شمال القطاع» نحو المدينة (شمال الوادي المُحاصَر)، نازحون مكدّسون في مكانيْن أو

ثلاثة، جيوب صغيرة في كماشة الموت والقتل والتجويع. يحلُّ البرد عليهُم زيادةً في معاناتهم.

عامٌ مضى، نزحنا فيه النزوح الثاني والثالث والرابع، جرّبنا مرارة الخيمة، أولاً بالهرب المفاجئ إليها تحت القصف والقذائف والمُعاناة، ثم بصيفها وحرّه الشديد، الذي لا يُحتمل على الرغم من «الإجراءات» أو محاولة التدبّر، وشتائها الغارق بالماء وبقايا الصرف الصحي والأمراض والأوبئة، وقُمامتها الممتلئة في الشوارع، في زحمة سياراتها وعرباتها ومواصلاتها السيئة، ومشيها الطويل المُتعِب في شوارع صعبة ومدمّرة، بين سيارات الإسعاف وأصوات القصف.

ضياعٌ آخر، ضياعٌ مُستمر مُمتد، نفتحُ فيه رزنامة الأيام ولا ندري كيف يُمكن أن تُكتب 2025، في التاريخ بكلّ بساطة، كيف مرّ الوقت، بينما كان ينظرُ العالم إلى إبادتنا بسلاسة، كأنّها حدثٌ عادي جارٍ، حدثٌ طبيعي. شعورٌ قاتل بالضياع.

بعد أن أدركنا أنّ الحياة على هذه الأرض ليست لنا، أو كما قال «غسّان كنفاني»: «عالمٌ ليسَ لنا». آن لنا أن نُدرك، أنّ الزمن أيضاً ليس زمننا، إنهُ زمن المُحتفلين وزمن السُعداء بمدنهم الكبيرة الجميلة التي لا تعرفُ شكلَ الحرب، ولا شكلَ العدوان، إنهُ بشكلٍ أدقّ: عامٌ ليسَ لنا، وهو مثل كُلّ الأعوام التي ستتبعُ هذا العام، أعوامٌ ستعيشها «غزّة» في وطأة أثار الحرب المُدمّرة، بين الرُكام والذكريات، عامٌ ليسَ لنا. ليسَ لأهل «غزّة»!

ضياء العزاوي - العراق

2024-11-23

رحلة البحث عن رغيف

كُل صباح في الأيام الماضية، حينما أجوب الشوارع، لا أجدني سوى باحث عن الخُبز، وأنا حقيقةً لا أستوعب إلى الآن أن الحال وصلت بي - كما وصلت بكُل الناس- إلى البحث عن رغيف

اعتقدت أنه يُمكنني البحث عن قصّة هُنا أو هناك، من قلب الحياة اليوميّة في غزّة، يُمكن أن أحكيها، لتبعث الأمل في أنّ هذا الشعب يستطيع أن يعيش، يستطيع أن يُكمل طريقه، متجاوزاً الكمّ الهائل من الألم، لكنني كُل صباح في الأيام الماضية، حينما أجوب الشوارع، لا أجدني سوى باحث عن الخُبز، وأنا حقيقةً لا أستوعب إلى الآن أن الحال وصلت بي - كما وصلت بكُل الناس- إلى البحث عن رغيف!

تفشّت أزمة الطحين في جنوب ووسط قطاع غزّة، أو ما يُسميه الإعلام «جنوب الوادي، أو جنوب القطاع»، في الأيام الأخيرة الماضية بشكلٍ كبير. بدأت بوادر الأزمة منذ حوالي شهر وأكثر، فمنذُ شهريْن أُغلقت المعابر وتوقّفت البضائع بمختلف أنواعها عن

الدخول، بما فيها الطحين. لكن الكميات الكبيرة التي كانت توجد في البلد، جعلتها قادرة على تجاوز أزمة خانقة لأكثر من شهرٍ ونصف، قبل أن تنهار.

فجأةً بدأ سعر الطحين بالارتفاع التدريجي، وصولاً لسعرٍ خُرافي لا يمكن استيعابه. كان السعر بدايةً يبلُغ 30 شيكلا، وبعض الناس باع الكيس الواحد بـ 5 شواكل فقط (ما يُعادل دولارا ونصف الدولار)، مع كثرة وجوده، وعدم حاجة الناس إليه، لبيع الخبز في المخابز وفي الطُرقات، في كُل مكان. ارتفع السعر تدريجياً. وصل بدايةً الى 80 شيكلا وأكمل حتى 100 و120 شيكلا. الآن، وحتى وقت كتابتي لهذه القصّة، بلغ أكثر من800 شيكل. ما يُعادل 250 دولاراً.

عادةً تعمل مجموعة كبيرة من المخابز المركزية والرئيسية في المُحافظات، على بيع ربطة الخبز مُقابل 3 شواكل فقط (أقل من دولار!)، لكنها أغلقت فجأة لعدم توافر الطحين، وهو ما انعكسَ على الناس الذين لجأوا لحلولٍ أخرى، مثل الشراء من المخابز البلدية الصغيرة التي تبيع الخبز بتكلفة أكبر، أو من بائعي خبز الصاج (خبز سوري خفيف).

بتُّ في الأيام الأخيرة أخصص ساعة أو ساعتيْن للبحث عن الخُبز.

أغلب المخابز البلدية لا تبيع للناس، إنما تعمل بنظام البدل، وهو نظام يقوم على تقديم كيلو طحينا، بالمقابل تأخذ كيلو خبزا، وتدفع فارق السعر (من 2 إلى 4 شيكل) عن كُل كيلو، وهي تكلفة وأجر العمال والعجن والخبز. وهذا الخيار بالنسبة لي منعدم، لعدم توفّر الطحين لدي.

ألجأ إذن إلى خبز الصاج، وهو نوع من الخبز الرقيق الذي لا يأكله عادةً أغلب الناس في غزّة. أنا وعائلتي نأكله، لأنني اعتدتُ عليه لوقتٍ طويل وأراهُ مقبولاً في الطعم. الناس يرونه «خفيفاً»، لا يسُد الجوع، وعادةً ما يأكله أصحاب النظام الغذائي الصحي أو من يرغبون في تخفيف السعرات الحرارية في الخبز.

الآن يلجأ كل الناس إلى الصاج، باعتباره الحل الوحيد، فتتحول الطوابير من المخابز الكبيرة التي كانت تفتحُ أبوابها، إلى بائعي الصاج البسطاء، الذين علا شأنُهم في يومٍ وليلة.

قبل الحرب كنتُ أشتري ثلاثة أرغفة من الصاج مُقابل شيكل واحد، في الحرب اختلفَ ثمنها، بحسب الظروف، أحياناً يُباع الرغيف الواحد مقابل شيكل، ومؤخراً ثبتَ السعر على رغيفين مقابل شيكل. إلّا أن الأزمة الحالية دفعت السعر إلى أن يكون هائلاً. صار الباعة يُقدمون 7 ارغفة مُقابل 5 شياكل، ثُم، وقبل كتابة هذه الكلمات بدقائق، وصل الرغيف الى أن يكون بـ2 شيكل.

أي رغيف ؟ هو صغير جداً، نصف حجم الرغيف الذي يُباع في الأيام العادية. لقد غلا سعر خبز الصاج الى 21 ضعف ثمنه الأصلي.

وقفتُ طويلًا أمام طابور خبز الصاج، مرّت نحو ساعتين حتى وصول دوري، حين اشتريت 41 رغيفاً مُقابل 20 شيكلا. أي 6 دولارات. هذه الأرغفة اشتريتها لنا، نحنُ ستة أشخاص نعيش في مكانٍ واحد معاً، نازحين في أرضٍ خالية وبعيدة. أيّ أنها ستكون رغيفين لكل شخص، واحد في نهار اليوم الذي اشتريتها فيه، وواحد لصباح اليوم التالي، حتى أستطيع أن أجد الخبز مرةً أخرى، إما من البائع نفسه، أو من بائعٍ آخر.

هـذا سرد طويـل مـن الأرقـام والأعـداد والأشـياء الـتي قـد تبـدو تافهة لـكُل قـارئ، لكنها في الحقيقة تنطوي على مُعاناة صعبة، لا أرغـب دائمًا في التحدث عنها، لأنـني لا أرغـب في أن أبـدو بمظهر المُتذمر أو المُتعَب، أو حـتى يُظهر النـاس تجاهي الشفقة أو التعاطف المبـني عـلى نظـرة «المسـكين»، كمـا يفعـل النـاس عـادةً تجـاه أهـل غـزّة. أضطّر للكتابة، فقط لأنـني أرغـب في أن يـرى النـاس مـا يحـدث، أن يقـرأوا عـن كلّ شيء، عـن كل هـذه التفاصيـل المُتعِبة. فعندما أكتـب عـلى منصة «إكـس» إنـني بحثـتُ عـن الخـبز طويـلاً هـذا الصباح، لـن يفهـم أحـدٌ كـمّ المعانـاة الـتي قاسيتها في الوصـول إلى الرغيـف.

كُل مـن حـولي في العمـل أو في مجموعـات الأصدقـاء في مواقـع التواصـل يتحـدث عـن هـذه الأزمـة. مثـلاً كانـت «شمـس»، وهـي زميلة جديـدة، تحضر كلّ يـومٍ ومعها ربطة من الخُبز، الذي تشتريه مـا بـين 01 إلى 15 شيكلا. وفي الأيـام الأخيرة لا أجدها تدخل ومعها هـذه الربطة. أسـألها عـن الخُبز فتقـول إن المخبز مُغلـق، ولا تعـرف كيـف سـتوفّر الخبز لعائلتها هـذا اليـوم. كذلـك يحدث مـع كثيريـن، الـكُل يسـأل عـن سـعر كيـس الطحـين وعـن مـكان توافـره، أو عـن سـعر ربطة الخبز اليـوم وعـن مـكانٍ يبيعها، وهما شيئان يصعـب الإجابـة عنُهما.

أُطمـئن نفـسي دائمًـا وأقـول «لا بـأس»، لا زلنـا لم نصِـل إلى معانـاة أهلنا في الشمال. عـاش أهـلي وقتـاً لم يكُـن لديهـم نصف كيـس مـن الطحـين، لم يكُـن لديهـم أي مخابـز تعمـل أصـلاً، ومـن يكـونُ معـه رغيـف في الشـارع، فهـو «ملـك زمانـه». حينهـا كنـت أتصـل بهـم فأسـأل عـن حالهـم، يقولـون إننـا خبزنـا «جولـة واحـدة» مـن الخـبز فقـط، وبعـدد صغير، لـكُل عائلـة رغيـف أو اثنـان، يحصل كلّ شخص

على ربع رغيف في كل وجبة. ربع في الصباح وربع في المساء.

على الأقل أنا أبحث طويلاً وأمشي كثيراً، وأقف ساعة أو ساعتيْن، وأحصل على الخبز، بالتالي لم أنقطِع عنهُ نهائياً. هذه المواساة تبدو بائسة، أقول لنفسي، لسبب واحد: إن استمرّت هذه الكارثة بهذا الشكل، ستفوق ما حدث في الشمال، فهناك يعيش فقط ما بين 350 إلى 400 ألف شخص، بينما في الجنوب يعيش حوالي 2 مليون شخص. مستوى الاستهلاك أكبر، ومستوى الحاجة أكبر بكثير.

أخيراً أحاول دائماً اللجوء إلى حلولٍ بديلة، مثلًا بدلًا من أن أتناول طعام الإفطار في البيت (وهو ليس بيت، هي خيمة، أصفها بال«بيت» لأنك مع العائلة فقط)، أؤجله إلى العمل، حيث أبحث في السوق عن أي بائع يبيع الفلافل أو المعجنات أو أي بديل آخر، وبهذا أوفّر رغيفاً أو رغيفين من الخُبز تأكله طفلتي.

في العودة، أبحث عن أشياء إضافية قد تكون بدائل سريعة لأي حالة جوع، مثل الكعك أو أي نوع آخر من البسكويت الذي غلا ثمنه أيضاً بشكلٍ هائل، وهي لتسد جوع الليل الطويل، بدلًا من الحاجة إلى إعداد سندويش.

أعتقد أنّ أغلب الناس في غزّة يفكّرون بهذه الطريقة، يُفكّرون مثلي. المؤكد أن الذين يفكرون، لا يستطيعون كُلهم تطبيق الفكرة نفسها، فالغالبية ليس معها نقود لشراء رغيف الخبز مُقابل 2 شيكل، ولا معها نقود تسهّل عليها شراء أشياء جانبية تُخفف من الحاجة للخُبز.

ارتفعت أسعار البدائل في يومٍ وليلة، ليصل سعر كيلو الأرز إلى 30 شيكلا بعد أن كان 15 شيكلا وأقل، وارتفع سعر زيت الطهي

إلى 50 شيكلا بعد أن كان لا يتجاوز 10 شياكل، وكذلك السكر والمعكرونة. هذا كُله، ونحنُ لم نتطرّق إلى الخضروات التي فاق سعرها السعر الطبيعي أكثر من 50 مرّة. أمّا اللحوم والدجاج والحليب والبيض، فهي غير متوافرة نهائياً.

أعود لأقول «لا بأس»، أهلي في شمال غزّة فرحوا يوم أمس بأنهم استطاعوا شراء كيلو من البطاطس، مُقابل 50 شيكلا، بينما كان سعره لا يتجاوز الخمسة شواكل في أيامنا العادية.

كيف نستعيد أيامنا العادية؟ لحظةً منها؟ تلك اللحظة من الهدوء والراحة التي لا تُفكّرُ فيها في طريقة توفير اللُقمة لطفلك!

العزيز عاطف - فلسطين

2024-11-03

الزيتون يا أبي

يتعلّق قلب أبي بأرضه، وهذا ما جعلني الآن أُدرك كيفَ تعلقَ أجدادنا بأرضهم، ويجعلني أُدركُ كيف يتعلق أولئك الذين نزحوا أو هاجروا ببلادهم، ثم يقررون بعد عشرات السنين العودةَ إليها. إنهُ يُحبها بشكلٍ لا يُحتمل ولا يُصدّق. يُحب موسم الزيتون، وقد انتهى موسم، ولم يجني من تعبه وأيام زيارته واعتنائه الطويلة بها، شيئاً. وأدركَ أنها لن تعودَ لوقتٍ طويل.

يملكُ والدي حقلاً كبيراً يضُم في أغلبه مئات أشجار الزيتون. يقعُ هذا الحقل المُمتد إلى من ستة دونمات، في قرية ريفيّة، نائية وصغيرة، تُسمى «جُحْر الديك»، تقع إلى الوسط الشرقي من قطاع غزّة، تحديداً على حدود محافظة غزّة، هُناك حيثُ فُصلَ القِطاع إلى زمنيْن، بواسطة موقع عسكري كبير يُسمى «نيتساريم». في تلك المنطقة، ينفصلُ القطاع، بين شماله وجنوبه.

هذا الحقل لم يعُد موجوداً. على الأغلب. نعم. وهذا ما ضربَ الحسرةَ في قلبِ أبي منذُ بداية الحرب. بعد تقاعدهِ من عمله الجامعي في 2020، حطّ اهتمامهُ في زراعة أرضه والاهتمام بها، يزورها كُلّ يومٍ منذُ الفجر، قاطعاً مسافة أكثر من أربعة عشر كيلو متراً المُمتدة

من قلب المدينة إلى حدودها الشرقيّة، يُلبي كلّ احتياجات أرضه، من عُمالٍ ومُزارعين، أو احتياجات المياه والكهرباء وغيرها، ساعياً إلى هدف واحد: الانشغال بهوايته وشغفه بالأراضي والزرع.

منذُ امتلاكه الأرض، اهتمَ كثيراً بالزيتون، الذي تطوّرَ فيما بعد إلى فرصة للرزق وكسبِ العيش ما بعد التقاعُد. صارَ محصولُ الأرض من الزيتون كبيراً جداً مع توسّعها في السنوات اللاحقة، ليهتمَ بموسم الزيتون الذي يبدأُ في فلسطين عادةً في شهريْ تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر. يتحوّلُ الموسم السنوي إلى احتفالٍ بالنسبة إلى الفلسطينيين، خاصةً الفلاحين، وإلى موسمٍ ايضاً بالنسبة إلى كلّ الناس الذين يرون فيه فرصةً لشراء الزيت الجديد، وفي هذا يقولون: «زيت السنة»، للدلالة على جودة الزيت الذي يشترونه.

فور بدء الموسم، يزور الحاج الأرض يومياً، ويكونُ يومَ الجمعة يوماً احتفالياً عادةً، إذ يحضر إلى الأرض أغلبَ أفراد العائلة من نساءٍ ورجالٍ وأطفال، مع العُمال والأقارب الذين تمتدُ أياديهم جميعاً إلى المُساعدة في قطف الزيتون، وصولاً إلى مرحلة جمعه وتصفيته، بين الزيتون الذي يُعد لـ«الكبس»، والزيتون الذي يُعد لـ«العصر». الأول يغدو صنفاً يومياً مع وجبات الإفطار والغداء، والثاني يتحوّل إلى أساسٍ لبيوت الفلسطينيين، فهو «السر» في كُل ما يأكلون.

فيما بعد، ذهب أبي إلى ما هو أكبر من ذلك، إذ قرّرَ الدخول في «ضمان الأراضي»، أيّ أن يستأجر أرضاً تُدرُّ محصولاً معيناً، لسنة أو سنتين أو مُدة يتفقُ عليها، وليتكفلَ بكُل ما تلزم، وصولاً إلى حصادها والاهتمام بإنتاجها وبيعه. وقد كان قبلَ بدء الحرب

ينتظرُ نهاية السنة الأولى من «حصاد الضمان»، لأرضٍ كبيرة جداً، كان يتوقّع أن تُدخل عليه ربحاً جيداً من بيع الزيت.

كُلّ ذلكَ انتهى. في غمضةِ عين. على الأغلب، جاءت الجرافات العسكرية الإسرائيلية ومسحت من الوجود عشرات الدونمات من حقول الزيتون في المنطقة.

«جُحْر الديك» الآن صارت أراضٍ خالية، فهي تقع على الحدود الشرقية لقطاع غزّة، بين القطاع وباقي الأراضي المُحتلة عام 1948. هذه المنطقة تحوّلت في السنوات الأخيرة، ما بعد 2021، إلى منطقة «آمنة» نوعاً ما، يستطيع الناس الوصول إليها، مع بعض الخطر في أحيانٍ عدّة، من إطلاق النار من الدبابات المُتمركزة في الجانب الآخر من الحدود، أو لرغبة الجنود في إزعاج المُزارعين وإقلاق يومهم وتخويفهم.

هي الآن تتواجد في منطقة خطيرة، لسببيْن: الأول أنها منطقة حدودية، وهي تصير كذلك في كُل عدوان أو حرب، والثانية أنها في منطقة تحوّلت إلى مواقع عسكرية لا يُرى فيها إلا الجنود والدبابات وغارات الطيران. وبالتالي مصير من يُحاول حتى أن يصل إليها، الموت والموت فقط.

بدأت الحرب مع بدء موسم الزيتون في 2023، صباح السبت، السابع من تشرين الأول/ أكتوبر، كان يستعد أبي للذهاب إليها والتجهيز لقطف الزيتون، إلّا أنهُ عادَ سريعاً بعد ساعةٍ من مغادرته، على وقع الصواريخ والقصف، والأحداث الكثيرة التي نظرَ إليها العالم ذلكَ الصباح. توقّع ببساطة أن يكون ذلك سريعاً، ينتهي بعد عدّة أيام، ليعودَ فيكمل قِطاف الزيتون.

الآن بدأَ الموسم الثاني من الزيتون. انتهى الموسم الأول، غالباً احترقَ الشجر وتم تجريفُه، أو مات مع هذا العام بلا عناية.

يتواجد أبي الآن في شمال قطاع غزّة، رفضَ كثيرا فكرة الخروج منه، يعيشُ المجاعةَ هُناك مع باقي أفراد العائلة، فلم يخرُج من هُناك نازحاً إلاّ أنا وأُسرتي الصغيرة، وأُسر أخواتي. ضعُفَ قلبُه في إحدى أيام المجاعة والحصار قبلَ أشهر، وهو الذي خضعَ لجراحة القلب المفتوح قبلَ أربعة أعوام، كسرَ تعبَ المرض حينها وجلوسه الطويل بالذهاب إلى الأرض، قائلاً إنها الوحيدة التي تُساعده على التعافي.

نعم، ضعُفَ قلبه، نتيجة الجوع والحصار والألم. وأنا أتوقع أن الأخير هو الوحيد الذي أضعفه، فألمهُ كان كبيراً لسببيْن: الأوّل أن إسرائيل أحرقت مشروع حياته، «مطبعة ومكتبة دار المقداد» التي أسسها في تسعينيات القرن الماضي، ودمّرتها بالكامل، وأحرقت معها عشرات «تنكات» زيت الزيتون، التي كانت مُخزّنة للبيع، فخسرَ فيها كثيرا وخسر لاحقاً كُل المال الذي ظل يجنيه لسنوات، كي يضمن لهُ حياةً كريمة، فهو الآن بدون أي فرصة لكسب الرزق. تألم حسرةً على الزيت، وعلى ما بناهُ في حياته، وعلى ماله. والسبب الثاني، أنّه أدرك أن أرضهُ ذهبتْ.

يتعلّق قلب أبي بأرضه، وهذا ما جعلني الآن أُدرك كيفَ تعلقَ أجدادنا بأرضهم، ويجعلني أُدركُ كيف يتعلق أولئك الذين نزحوا أو هاجروا ببلادهم، ثم يقررون بعد عشرات السنين العودةَ إليها. إنهُ يُحبها بشكلٍ لا يُحتمل ولا يُصدّق. يُحب موسم الزيتون، وقد انتهى موسم، ولم يجني من تعبه وأيام زيارته واعتنائه الطويلة بها، شيئاً. وأدركَ أنها لن تعودَ لوقتٍ طويل.

خسرَ أبي الآن موسميْن من الزيتون، والقلق الأكبر أن تلك المساحة ستضيع تحت مُسمى «المنطقة العازلة» التي تسعى إسرائيل إلى السيطرة عليها في مناطق شرقي قطاع غزّة، وهو الهاجس الأكبر المُخيف لنا جميعاً. كُل ذلك الخير، سيسرقونه، كما سرقوا أعمارنا وأعمار أطفالنا.

هذا ما يؤلمه، هذا ما يؤلم قلبه. لكنني دائماً أتأكد أنه أقوى من كُلّ ذلك، فهو الذي أتصلُ به ليُطمئنني، ويُذكّرني ببعض الآيات والكلمات عن الثقة بالله. ثقته أن هذه الحرب ستنتهي، وأننا سننجو، وسنعود، من الأشياء البسيطة القليلة التي تجعلني متمسكاً بفكرة الأمل.

أتصلُ به أسأله عمّا يأكل أو أكل وسطَ المجاعة المستفحلة منذُ أشهر، فيقول ببساطة، خُبزة صغيرة من الزعتر، وبعض الزيت. هكذا يبقى الزيت رفيقاً للفلسطيني، رفيقاً لكبارنا، مهما مرّ الوقت، ومهما تجبّر الزمن علينا! يقول أيضاً «لو خبزة فيها زيت وملح بتكفيني».

عبد عابدي - فلسطين

2024-09-26

إعادة تكوين العقل الغزّي

أجيالٌ بأكملها تفقدُ حياتها وسنواتها. وأطفالٌ صغار يستيقظون على واقعٍ غير بشري. هذا هو كيّ الوعي الجديد الذي تقوم به إسرائيل، ويوافق عليه العرب. العرب الذين يُريد «نتنياهو» مُساعدتهم في تأهيل المُجتمع الغزّي وإعادة تأليف المنهاج الجديد، على مقاس «السلام الإبراهيمي»، ووفق مبادئه!

مررتُ مع طفلتي التي بلغت عامَيْن قبل أسابيع قليلة، أمام مكبٍ كبير من النُفايات لا يُشبه المكبات العادية، فيه أطنان من القُمامة المرميّة في الشارع وعلى الجدران وداخل ساحةٍ كبير تنشر البعوض والحشرات والروائح السيئة، والأمراض بطبيعة الحال. اضطّرتْ الطفلة إلى أن تضع يدها على أنفها من سوء الرائحة. هذا المكب الكبير، يوجد في الشارع الذي نزحتُ إليه داخل خيمة في بلدة «الزوايدة»، من قطاع غزة.

في الطريق نفسها، وقد قررتُ أن آخذ «سلوان» في مشوارٍ سريع، مررتُ بشوارع رملية مهترئة، أتعبها المشي فيها تحت الشمس، لتقول لي «شوب»: «احملني». فيه أيضاً، منازل مُدمّرة ورُكام،

وخيام كثيرة للنازحين، نساء يطبخن تحت الشمس على النار، عربات تجرُّها دواب، ومشاهد لم أتوقّع أن تراها طفلتي يوماً.

عند رؤيتها للبيت المُدمّر، أوّل ما سألتُ نفسي: كيف ستستوعب الطفلة الصغيرة أنّ هذا الشيء ليسَ هو العادي؟ أن هذه ليست هي الحياة الطبيعيّة. أنّ البيت المُدمّر هو الحالة الشاذة، والقُمامة المتراكمة في الشارع شيءٌ استثنائي، وأن تركب على عربة بحمار مع والدها ووالدتها، شيءٌ غير طبيعي.

كذلك تعلّمتْ هي أن تُمسك بغالونات المياه الكبيرة وتجُرها، داخل أرض النزوح بجانب الخيمة، كما ترى والدها ومن حولها من الأشخاص يأتون بهذه الغالونات لتعبئة المياه، بسبب الشحّ الكبير فيها، وهو ما يجبر النازحين على الانتظار في طوابير كبيرة أمام سيارات المياه والعربات التي تبيعها. بالطريقة نفسها، تلعبُ بالرمل وتلوّث نفسها عدّة مراتٍ في اليوم، لا تعرف شكلاً لبيت، ولا لجدرانه، فتحب التلوين على جدران الخيمة. لا تعرفُ للخصوصيّة وجهاً، فتسمعُ ابن خالتها يبكي في الغرفة الملاصقة، وهي تبكي في الخيمة، فيسمعُها الجيران في خيمةٍ مُقابلة.

السؤال الذي أسألهُ نفسي دوماً: كيف سأجعل ابنتي تستوعب، أن للحياة شكلاً آخر، وأن هذا النمط المعيشي ليسَ هو الطبيعي، هذا النمط شاذّ، طارئ، يجب أن يكون عابراً، لتعود الحياة إلى آدميتها. وأسأل نفسي أكثر: كيف ستستوعب وأنا من قبلها، أنّ لنا كرامة ونحنُ نقوم بهذه الأفعال المُختلفة، ونعيش في هذه الأماكن المُدمَّرة؟

في تصريحاتهِ المُتكرّرة، قال رئيس الوزراء الإسرائيلي «بنيامين نتنياهو»، إنّ الجيل الجديد من الفلسطينيين يجب ألا يتعلم

كراهية اليهود بل العيش بسلام معهم. هذا الشخص ذاته، كرّر مراراً أنهُ يسعى إلى تغيير مضمون المنهاج الذي يتعلّمهُ الفلسطينيون في غزّة خاصة، مُعْزياً أحداث «السابع من أكتوبر» إلى هذا المنهاج، وإلى هذه العقيدة، التي تشرّبها أطفال فلسطين منذُ سنوات، لا إلى الجرائم المُتكرّرة التي عاشوها، وكبروا وهي تحدثُ أمامهم.

كرّر «نتنياهو» القول إنه يجب أن يكون هُناك «منهاج فلسطيني جديد في التعليم»، وظهرت كثيرٌ من الأفكار عن خُطط اليوم التالي التي تسعى إسرائيل إلى فرضها أو التفكير فيها - على الأقل - كُلها تتضمّن إعادة تأهيل العقل الغزّي، هذا على اعتبار أنّهُ أصلًا عقل لا يتفق مع معايير هذا العالم، أو بمعنى آخر: لا يتفق مع معايير الأمريكيين ومن خلفهم الإسرائيليون.

وهذا ليسَ جديداً ولا غريباً. ففي أيلول/ سبتمبر 2024، يبدأُ عامٌ دراسي جديد في فلسطين -أو البقع الحيّة الباقية منها- وفي باقي أنحاء العالم، بينما يضيع على أطفال غزّة عامٌ دراسيٌّ ثانٍ، بلا مدارس وبلا تعليم، وحتى بلا أي أُفق لاستكمال هذه المنظومة المهمّة والرئيسيّة في الحياة، وفي بناء الأجيال.

لكن أيُّ أجيال؟ تلك الأجيال التي انتقلت من طوابير المدرسة في الصباح، إلى طوابير تعبئة المياه، وطوابير الانتظار أمام توزيع الطرود والكابونات، والطوابير الطويلة أمام المراحيض في الخيم، وحتى في قلب الشوارع على الطُرقات، بلا دليل، وبلا وُجهة، عدا أولئك الذين انطلقوا إلى سوق العمل من طفولتهم المبكّرة، إما ليُعيلوا أسرةً فقدت والدها، أو ليُساعدوا أباً يعملُ على سيارة أو في السوق.

هذه هي طريقة إعادة رسم الواقع، وهذه هي إعادة تكوين العقل الغزّي، وإعادة برمجة الإنسان الفلسطيني بطريقةٍ لا يُحكى عنها في الإعلام ولا تُذكر أساساً في المؤتمرات العديدة، التي يعقدها المسؤولون الأمميون والدوليون عن الواقع الكارثي والصعب.

ينشأ الآن جيلٌ جديد من الفلسطينيين، الذين لا يعرفون شكل الحياة الطبيعي، أطفال صغار نشأوا وتربوا بين الدمار والرُّكام والقمامة، وشاهدوا من حولهم كُل هذه المأساة، لا يستوعبون النمط العادي للحياة. وجيل آخر أكبر سناً، انفصل بالكامل عن واقعه البشري، وانتقلَ إلى نمطٍ يمتهنُ كرامته، ويُنسيه حصيلته التعليميّة والفكرية، التي تعبَ المُعلمون في تأسيسها سنواتٍ طويلة.

لا أحد يعرفُ حجم الكارثة. فأكثر من 120 مدرسة دُمّرت بالكامل وأكثر من 300 أُخرى مُدمّرة جزئياً، والآلاف الأُخرى هي مأوى للنازحين، ولا يُعرف مصير من فيها حتى لو انتهت الحرب. وإن تحدّثنا عن التعليم الإلكتروني، فإنّ الإنترنت شيء لا يعرفهُ أغلب السكان، وأجهزتهم الإلكترونية انتهت ودُمّرت، عدا عن أن موادهم الدراسية وكُتبهم، إمّا جرى استخدامها لإشعال النار للطبخ، أو بقيت مُمزقة تحتَ الرُّكام.

هذه الكارثة تتسع في كُلّ يومٍ تستمرُ فيه الحرب، ويبعتدُ الطُلاب عن مدارسهم. فمنذُ هذا الشهر سيفقدُ جيلٌ آخر نفسه، إذ لم يتخرّج طلبة الثانوية العامة العام الماضي من غزّة، ولن يتخرّجوا هذا العام إن استمرّ الواقع كما هو.

أجيالٌ بأكملها تفقدُ حياتها وسنواتها. وأطفالٌ صغار يستيقظون على واقعٍ غير بشري. هذا هو كيّ الوعي الجديد الذي تقوم به

إسرائيـل، ويوافـق عليـه العـرب. العـرب الذيـن يُريـد «نتنياهـو» مُساعدتهم، في تأهيل المُجتمع الغزّي، وإعادة تأليف المنهاج الجديد، عـلى مقـاس «السـلام الإبراهيمي»، ووفـق مبادئـه!

أحمد السوداني - العراق

2024-09-12

يتفاوضون على دمنا

أهل غزّة يعرفون أنّ الحرب عليهم، والهُدنة ليست لهم. إنها هُدنة الأسرى الإسرائيليين، هُدنة ليعودوا إلى أحبائهم. أولئك الذين تفرّقوا بين شمال وجنوب غزّة، والذين صاروا في القاهرة وأهلهم في «خانيونس»، والذين صاروا في القبور، وأولادهم في الخيام، لن يجمعُهم أحد، ولن يُفكّر في مصيرهم أحد.. إنهم يتفاوضون على دم أهل غزّة، ومن أجل أسرى إسرائيل، فقط.

مُذهل! العالم يستيقظ فجأةً، يستنكر، يُنادي بضرورة التوصّل إلى اتفاقٍ يوقف إطلاقَ النار. العالم يُكْثر من الضجيج. «مجلس الأمن»، يُصدر قراراً، يُصفّقون ويُهلّلون، «البيت الأبيض» يرى الاتفاق قريباً، «بايدن» يُريد الاتفاق بشدّة، «هاريس» تدعو إلى إنجاز الصفقة، و«ترامب» يُشجّع على إنهاء الحرب. دول العالم تتداعى إلى التنديد بهذه الحرب المُستمرّة منذُ عشرة أشهر.

لماذا؟ الأسرى. يجب إطلاق سراح المختَطفين الإسرائيليين، إنهم يُعانون في الأسر، عشرة أشهر من التعب والمُعاناة بعيداً عن الأحباب والعائلة والوطن. يجب أن يعيشوا بسلام، ساعدوهم،

سريعاً أوقفوا إطلاق النار، وتوصّلوا إلى صفقة.

أنظرُ قليلاً إلى كُلِّ التصريحات المتعجّلة التي تُنادي بصفقة. أنظر ملياً. كُلها تختتم خبرها بأن الصفقة يجب أن تتم لسببٍ واحد: الإفراج عن الرهائن، وإعادتهم إلى الوطن.

تجري عجلة المفاوضات منذُ أشهر، ونحنُ نجري خلفها. لكن كيف؟ على عربة يجُرها حمار، في أسواق «دير البلح»، وفي شوارع «الزوايدة»، و«خانيونس» المُدمَّرة بين الأنقاض، وفي «المواصي» هرباً من الصواريخ، وفي غزّة وشمالها بحثاً عن الطعام. نجري ونجري ونجري، وتجري المفاوضات، إنهم يتعبون كثيراً، رحلاتهم الجويّة من باريس إلى القاهرة إلى الدوحة إلى روما إلى تل أبيب إلى واشنطن.. لكن، لا رحلة إلى غزّة، لا رحلة تحطُ هُنا، سوى رحلات الطائرات الحربيّة، التي تُوصل صواريخها إلى أحضان المدنيين، ولا رحلاتٍ سوى رحلات حاملات الطائرات الأمريكيّة والبوارج والمدافع التي فاقت مصاريفها مليارات الدولارات منذُ «السابع من أُكتوبر».

هذا الوقت الذي يمشي، ليس مجرّد وقتٍ عادي، ليست دقائق بسيطة يُضيّعها أيّ مواطن أو موظف في المواصلات، يحزن لأنّها سَرقت منهُ بعض ساعات العمل، او أخّرته قليلاً عن قهوته الصباحيّة... إنها نزيفُ الدم في أجساد أطفالنا. نزيفٌ مُستمر في أمعاء أهلنا القابعين في غزّة، يموتون جوعاً، ويشتهون شيئاً من نعيم «فاكهة الصيف» أو بعض «قطع اللحم»، كي يعيشوا قليلاً، قليلاً، كما ينبغي لإنسانٍ أن يعيش.

بينما تستمرُّ المفاوضات، التي تتكرّر منذُ أشهر، ويتكرّر معها

التصريح الأمريكي المعهود على شكليْن: نحنُ نقترب من إتمام الصفقة، وهي في مراحلها الأخيرة. وتصريح: سنُقدّم مقترحاً آخر يسدُ الفجوات بين الطرفيْن، قد يكون الأخير. وأيُّ أخير؟ وأيُّ اقتراب؟ إننا في كُل يوم نقترب ونقترب.

قبل رمضان، اقتربنا من الصفقة، قالوا إن العالم العربي والإسلامي لن يسمح بأن تستمرّ الحرب في غزّة خلال «رمضان»، حرام، رمضان شهرُ الجهاد، لن يسمحوا بنزف الدم في شوارع غزّة، سيقفون ويغضبون، ستخاف إسرائيل. لذلك ستكون هُدنة، ولم تكن.

قبل العيد، قالوا من المُستحيل أن يعيش أهل غزّة عيداً بلا سلام، بلا هُدنة، فجاء العيد، وجاء الآخر، وبوابة الدم مفتوحةٌ على مصرعيها.

قبل دخول مدينة «رفح»، قالوا إن الهُدنة قريبة، ولن تحدث المجزرة في «رفح»، لن يحتلوها، وسيتداعى كُلُّ العالم إلى إنقاذها، وإنقاذ النازحين فيها من مجزرةٍ مُحتملة، سيضغطون بما يكفي لتتمّ الهُدنة، يجب أن تتوقّف المأساة، فهؤلاء الناس لا يستطيعون أن يُكملوا نزوحاً آخر، فإلى أين يذهبون؟ ففشِل المُقترح، ودخل «نتنياهو» مدينة «رفح»، وهرب الناس، ومات الآلاف، ومشت الدبابات فوق أجساد النساء في «مواصي رفح».

في نهاية أيار/ مايو، قالوا إن هناك مُقترحاً، وجاءوا بتصريحاتهم من جديد، في بداية تموز/ يوليو، عادوا إلى الحديث عن المُقترح، ومع بداية آب/ أغسطس، وتحسباً، وتخوفاً من ردٍ إيراني ولُبناني، وقفوا جميعاً لإكمال المسرحية، وقالوا تعالوا يوم 51 آب/ أغسطس للتفاوض. قالوا التصريحات نفسها، تماماً كما تُذْكر في كُل كلمة، عُدنا إلى الكلمات نفسها: الاتفاق قريب، الصفقة تتم، الفجوات

تضيق، النقاط الخلافية بسيطة، سننتهي منها، يجب أن تكون هُناك مرونة، الأطراف تتفاوض بإيجابية.

وجاءوا الآن من جديد، ليقولوا الكلمات نفسها، لا غرابة، يبدو أنّهم يقتصّون تصريحاتهم السابقة، على عجلةٍ من أمرهم، يستنسخون المؤتمرات والمقالات والكلمات من هُنا وهناك، وينشرونها من جديد. لا وقت لديهم، فمن لم يكُن لديه الوقت، ليرى ما يحدُث في غزّة ويتحرّك من أجلها، منذُ مجزرة المستشفى «المعمداني» وحتى مجازر مستشفى «الشفاء»، و«مواصي خانيونس»، و«النابلسي»، وغيرها، لن يكون لديه الوقت، حتى لترتيب كلامه عنها.

تستمرُّ عجلة التفاوض السياسية بغزارة، وتتنقل الوفود بين عواصمها المُختلفة، سعياً إلى التهدئة، بينما يغرقُ أهل غزّة في وادٍ آخر، لا يعرفُ عنهُ شيئًا أولئك الذين يقبعون في غرف التفاوض المُختلفة. لا أحد يعرف الآن عن التفكك الاجتماعي الذي حصلَ هُنا، لا أحد يعرف عن العوائل التي انهارت علاقاتها وحاربت بعضها، بسبب ضغط النزوح المُستمر وتكدّس الناس في غرفٍ صغيرة بأعدادٍ كبيرة. أكثر من 10 عائلات تعيش في بيتٍ واحد، وأكثر من 20 عائلة تستخدمُ حماماً واحداً في مُخيّم، وأشخاصٌ اضطروا لتحمّل أعدائهم، فقط لأن الحرب تقتلُ، ولا تعرف الصديق من العدو.

تستمرُّ هذه العجلة، ولا أحد يعرف مآسي الرجال، الذين ينطلقون كلّ صباح، لتعبئة المياه لأطفالهم، أو لأخذهم إلى التطعيم، أو إلى البحث عن طعام أو مصدرٍ للعيش. تستمرُّ العجلة في زمنٍ آخر، لا يعرفهُ أهل غزّة، زمنٌ بعيدٌ جداً، يعتقدون فقط أنّ هذه التصريحات والكلمات مُجرّد ترّهات وكلمات إنشائية فارغة، لا جدوى منها، ولا معنى لها.

تستمرُّ، وأهل غزّة يعرفون أنّ الحرب عليهم، والهُدنة ليست لهم، إنها هُدنة الأسرى الإسرائيليين، هُدنة ليعودوا إلى أحبائهم. أمّا أولئك الذين تفرّقوا بين شمال وجنوب غزّة، والذين صاروا في القاهرة وأهلهم في «خانيونس»، والذين صاروا في القبور، وأولادهم في الخيام، لن يجمعُهم أحد، ولن يُفكّر في مصيرهم أحد.. إنهم يتفاوضون على دم أهل غزّة، ومن أجل أسرى إسرائيل، فقط.

مجد كردية - سوريا

2024-08-29

لم يبقَ إلّا البحر..

يبدو ألّا شيء سيبقى للناس، إلّا البحر. فليذهبوا إلى البحر، فهو صديقُهم الوحيد، وهو الباقي فقط ليحفظَ ذاكرة أهل غزّة. لكن، هُناك، وعلى بُعد عشرات الأمتار القليلة، تقعُ الزوارق الإسرائيلية، التي لا تترك حتّى ماء البحر نفسه، لتُطلق قذائفها وتُطلق النيران على النازحين، إلى جانب التلوث الشديد، الذي يمرُ بمياهه. فحتّى البحر، لن يبقَ لغزّة ولا لأهلها.

في اليوم الأخير، اضطرّت شقيقتي إلى الهرب من جديد من مكان نزوحها. تطلّبَ الأمرُ أن تحملَ حياتها على كتفيها، وأولادها الثلاثة بين يديها، وتجري - حقيقةً لا مجازاً - ففي حياة «الخيم» يتطلّب الأمر أن تضعَ كُل ما تضمُّه حياتك في «خيمة»، وعند الهرب من المكان، لا يتطلّب الأمر سوى أن تحمل كلّ هذه الأغراض بأبسط طريقة، وتهرب. سيارة أو شاحنة أو عربة، كفيلة بأن تحوي كُلّ شيء.

قُبيل خروجنا من «رفح» قبل أربعة أشهر، واجهنا المشهد نفسه. كُلنا هربنا، فهو النزوح الثالث لنا. أتينا بشاحنة تكفي لما بين أيدينا من أغراض. وقفتُ ملياً، يائساً، مُتعباً في صالون البيت

الذي نزحتُ إليه في المدينة، ونظرتُ أمامي، حيث تقع كُل الأغراض التي حاولنا جمعها في كراتين وعُلب وشُنط، وسألتُ نفسي: كيف تتسعُ الحياة لكلّ هذه الأغراض؟ وأيّ شيءٍ آخُذ؟ الملابس والطعام والأدوية والفراش؟ أم الذكريات والتفاصيل؟ أيُّ شاحنةٍ ستضمُ كلّ هذه الأشياء؟

نزحتْ أُختي، كما نزح عشرات الآلاف من الناس، من المناطق الشرقية من «دير البلح»، في الأسبوعيْن الأخيريْن. سبقها نزوحٌ من مناطق «شرق الزوايدة»، و«مُخيم المغازي»، وهي مناطق تقع كُلها في محافظة وسط قطاع غزّة. النزوح ليس الوحيد في هذه الفترة، سبقهُ نزوحٌ لمئات الآلاف من مناطق شرق «خانيونس» ووسطها، الذي تكرّر مراراً في الشهر نفسه.

أصدرتْ إسرائيل حوالي 12 أمر إخلاء خلال شهر آب/ أغسطس الجاري، أدّت إلى نزوح نحو 250 ألف شخص. رُبع مليون إنسان، كان مطلوباً منهم الهرب، والوجهة؟ لا أحد يعرف. هذه حقيقة، أنّ الناس تُفاجَئ في لحظةٍ باتصالٍ من الجيش يقول لهم: «اخرجوا»، وفي لحظاتٍ قليلة، تنهالُ عليهم المدفعية الإسرائيلية وطيران «كواد كابتر» والطائرات المروحية، بالقذائف والرصاص، تصطادهم اصطياداً، حتى خلال محاولتهم النزوح.

أوامر الإخلاء الجديدة التي صدرت خلال الشهر، قلّصت جزءاً كبيراً من المنطقة التي تُسميها إسرائيل «المنطقة الإنسانية»، أو «المنطقة الآمنة»، وهي في الحقيقة كذبة كبيرة. فنسبة كبيرة من أعداد الشُهداء، الذين يسقطون يومياً في القطاع، يموتون في مناطق مُصنفة من الجيش الإسرائيلي على أنّها «خضراء».

الآن، المطلوب من الناس أن يذهبوا إلى منطقة مساحتها فقط 5.9 في المئة من إجمالي مساحة قطاع غزّة البالغة 360 كم مربّعاً. ومُنذ بدء الحرب في تشرين الأول/ أكتوبر 2023، كانت مساحة هذه المنطقة بدايةً 230 كم، وصارت الآن فقط 53 كيلو متراً، هي التسعة المكتوبة في الأعلى. بدأت كبيرةً، ثم تقلّصت مراراً، يوماً بعد يوم، حيث قلّصتها إسرائيل أكثر من ستّة مرّات.

بالنظر إلى الخريطة، كانت المساحة «الكاذبة» مُمتدّة من «المغراقة» شمال وسط القطاع، إلى «رفح» أقصى جنوب القطاع، لكنّها الآن تمتد في مساحةٍ ضيّقة للغاية، تُشبه الخيط الرفيع، من «مواصي خانيونس» جنوباً، حتى «الزوايدة» وسطاً، ولا تمتدّ إلى أبعد من «شارع صلاح الدين»، الذي يقسم القطاع غرباً وشرقاً. أيّ أنّ إسرائيل أزالت منها مناطق كثيرة، بينها «رفح» بكُل ما فيها من أحياء ومناطق واسعة، والعديد من البلدات شرق «خانيونس» ومخيمات: «المغازي»، و«البريج»، و«النصيرات»، وبلدة «المغراقة»، ومدينة «الزهراء»، وبلدة «المصدّر».

زيادةً على ذلك، تتقلّص المساحة كُلّ يوم، فحتى المساحة «الآمنة» الكاذبة، التي يقع فيها مكانان رئيسان: «مواصي خانيونس»، و«دير البلح»، صارت تنقُص. في الأسبوعيْن الأخيريْن، طلبت إسرائيل إخلاء عشرات الكيلومترات من مساحة «دير البلح»، غرب «شارع صلاح الدين»، أي أن الإخلاء دخل فعلاً أحياءً واسعة من المدينة الوحيدة الباقية في غزّة، كما وصل إلى عددٍ من المناطق في «مواصي خانيونس»، وقلب مدينة «خانيونس».

مهما حاولتُ الشرح، فلن يفهم أحدٌ هول هذا المشهد، إلّا من يعيشُه على الأرض. رُبما لو نظرتُم إلى الخريطة ستفهمون كيف

تصير المنطقة مساحةً ضيّقة، يُطلب الآن أن يُحشر فيها حوالي اثنين مليون شخص، بأطفالهم ونسائهم ومرضاهُم وبكلّ ما يملكون.. أو ما لا يملكون.. فأملاكهم كُلها ذهبت قصفاً وحرقاً في مناطق الإخلاء.

هذه مناطق نائية، ضعيفة، سيئة، مُتهالكة. في الغالب كانت «صحراء صغيرة»، أراضيَ باهتة، مليئة برمال البحر الباقية من أثر المستوطنات الإسرائيلية المُدمّرة، إثر الانسحاب الإسرائيلي عام 2005، أراضٍ مُخصصة للزراعة، عدد المنازل والأبنية فيها قليلٌ جداً، وبالتالي لا بُنية تحتية فيها، لا مياه شُرب، ولا مياه استخدام يومي، ولا شبكاتٍ للصرف الصحي، ولا أيّ مقوّمات معيشيّة. هذا بالنسبة إلى منطقة «مواصي خانيونس».

أمّا «دير البلح»، فهي لمن لا يعرفها، مدينة صغيرة جداً، وفي تعريفنا لها في الأيام العادية في غزّة، نقول: «دير البلح كُلها شارع»، أيّ أنها تُختَصر في شارعٍ واحد طويل، يمتد من «طريق صلاح الدين» حتى البحر، وهذا الشارع يذهب إلى كُل أحيائها وحواريها وشوارعها، ومنه تذهب إلى أيّ مكانٍ تُريده، على طرفيْ الشارع. صار مطلوباً منها، كمدينة ريفية صغيرة، أن تتسع لكل هذا العدد الهائل من الناس.

حوالي 95 ألف شخص، هو عدد سُكان المدينة في الوقت العادي، ولنتخيّل مثلًا أن مدينة مُهيأة لهذا الكمّ من الناس، ستحتاجُ فجأةً إلى أن تتسع لحوالي مليون شخص، لذلك، فإننا في شوارعها نرى مياه الصرف الصحي المتكوّمة كبركٍ كبيرة ومستنقعات، يغرق فيها الناس، ومنها تنتشر الأوبئة والأمراض المُختلفة، التي تفتكُ بالمرضى، وتودي بحياتهم، من مثل «شلل الأطفال»، الذي

انتشر مؤخراً.

لا تمويل المؤسسات ولا البلديات ولا أيٍّ من موازنات الحكومات الفلسطينية المتعاقبة على مدار الأعوام الماضية، كان يتخيّل أن يُر على المدينة يومٌ كهذا. ففيها مستشفىً واحد فقط، ليسَ لها وحدها، إنما لكُل المحافظة التي تضُم ثلاثة مُخيمات وعدة بلدات ومُدناً أُخرى، وهو الوحيد العامل في الجنوب حالياً، مستشفى «شُهداء الأقصى».

يُحشر الناس الآن شيئاً فشيئاً، في جيبٍ صغير وضيّق ورفيع جداً، يمتدّ من غرب «دير البلح» حتى غرب «خانيونس والمواصي»، وكُلها منطقة صغيرة قريبة من البحر، يُضغَط فيها الناس كُل يوم، وكل لحظة مع أيّ قرار يقضي بإخلاء مكانٍ جديد، في المناطق الشرقية من المحافظتيْن، ويبدو ألّا شيء سيبقى للناس، إلّا البحر.

فليذهبوا إلى البحر، فهو صديقُهم الوحيد، وهو الباقي فقط، ليحفظَ ذاكرة أهل غزّة. لكن، هُناك، وعلى بُعد عشرات الأمتار القليلة، تقعُ الزوارق الإسرائيلية، التي لا تترك حتّى ماء البحر نفسه، لتُطلق قذائفها وتُطلق النيران على النازحين، إلى جانب التلوث الشديد، الذي يمرُ بمياهه. فحتّى البحر، لن يبقَ لغزّة ولا لأهلها.

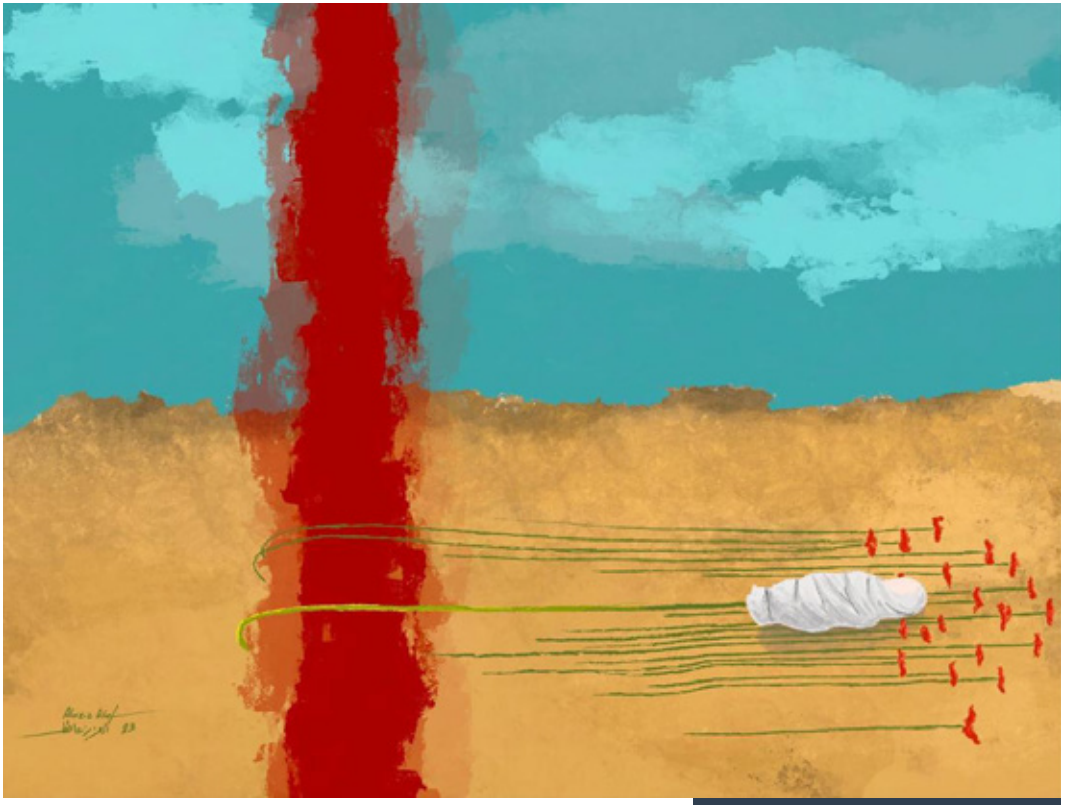

العزيز عاطف - فلسطين

2024-08-20

شُهداء غزّة: هاجس الموت والحكاية

أنشأنا موقعاً إلكترونياً بلغتيْن، العربية والإنجليزية. كتبتُ افتتاحيّته، وكتبتُ رسالتنا. انشأنا فيه مساحة مخصّصة لإرسال القصص، وقسّمنا القصص على أقسام كثيرة، منها فئات الشهداء من رجال ونساء وأطفال وكبار سن، ومسعفين وصحافيين ومدنيين... إضافةً إلى تواريخ الاستشهاد ومناطقها، ما يجعل من الموقع مرجعاً وأرشيفاً لكلّ قصص الشهداء التي نعمل عليها، حتى لا تكون المبادرة مجرّد فكرة عابرة، وأن يستعملها كلّ شخص يبحث عن شهيد.

في واحدة من الليالي الأخيرة في بيتي بمدينة غزّة، خطرَ لي كُلّ الشهداء من الأصدقاء، الذين رحلوا وقتلتهُم الحرب. حينها كُنّا في الأيام الأولى للحرب، إذا ما قارنّاها بالمدّة التي وصلت إليها الآن. ليلتها استشهد الصديق «ميسرة الريّس»، بعد أن كتب كلماتٍ بسيطة تداولها الناس، عن تخوّفه من أن يموت تحت أنقاض بيته، ليتحقّق ذلكَ لاحقاً. سألتُ نفسي، وأنا أعيش ليالِيَ صعبة تحت شظايا القذائف المدفعية، مع باقي أفراد عائلتي: من سيذكر هذه الحكايا؟ من سيكتُب عنهم؟ وماذا إن مُتُّ الآن، من سيحكي عنّي؟

في تلك الليلة، مباشرةً، أنشأتُ حساباً جديداً على موقع «إكس» («تويتر» سابقاً)، أسميتُه «شُهداء غزّة». سريعاً بدأتُ نشر قصّة صديقي «ميسرة»، الطبيب الذي قضى في مدينة غزّة حين كان ينتظر طفلاً، ثم قصصاً لبعض أصدقائي الشُهداء الذين تذكّرتهم من بين هذه القائمة الكبيرة. «إبراهيم لافي»، صديقي العزيز وأوّل صحافي استشهد في الحرب صباح «السابع من أكتوبر»، شهداءُ آخرون من إخوة أصدقائي وأقاربهم.

بدأتُ بنشر الفكرة على «إكس»، نشرتُها في عددٍ من المجموعات الإلكترونية، تحدّثت عنها هُنا وهُناك لأصدقاء وصحافيين ونشطاء، طلبتُ منهم أن ننشر الفكرة. في اليوم التالي، أسستُ حساباً آخر بالفكرة نفسها على تطبيق «انستغرام»، واليوم اللاحق على تطبيق «تلغرام".

من هُنا كانت البداية. كانت البداية كي لا تبقى كُل الحكايا، وكُل الأسماء، نهاية فقط، من دون قصّة، فأوّل ما كتبتُه «هُنا نحكي قصص الشهداء، شُهداء غزّة، هُنا ننشر عنهم كي لا يكونوا أرقاماً".

لم أتوقّع أن تلقى هذه الفكرة رواجاً كبيراً في الأيام اللاحقة، وعلى الرغم من أنّي نزحتُ من بيتي في «مُخيم الشاطئ» إلى «حي الشيخ رضوان» بعدها بيومَيْن، ثم من شمال غزّة إلى مدينة رفح الجنوبيّة بعدها بأيّام، وعشتُ تفاصيلَ صعبة من المُعاناة، لم أُقرّر أبداً التخلي عن الفكرة. سرعان ما أكملتُها، وكلّ يوم صرتُ أُفكّر، كيف أُطوّرها؟

في اليوم الأوّل بعد تأسيس الفكرة، أوّل من أرسلتُها إليه، كان الشهيد الدكتور «رفعت العرعير». مباشرةً تابعَ المُبادرة، وقبل

النقاش معهُ، بادرَ بالعرض بترجمة القصص المنشورة فيها إلى اللُغة الإنجليزية، ونشرها من جانبه، أو حتى نشرها من طرفي في الحساب. قال «رفعت» حينها، كلمةً واضحة، وهو المعروف بثوابته المُتعلقة بفلسطين ومقاومتها ونشر قضيّتها إلى العالم، قال: «يجب أن نذكر إسرائيل دائماً، يجب أن نذكر القاتل. يجب ألّا نقول إنّ الشخص استشهد فقط بتاريخ كذا، أو قتلته الصواريخ بتاريخ كذا. يجب أن نقول للجميع: «قتلتهُ إسرائيل، قتلهُ الاحتلال، قصفهُ الاحتلال.. إلخ»، ولم أتخلَ يوماً عن هذه الفكرة، حتى حينَ توسّع فريق العمل.

في البداية، ولأشهرَ طويلة، كنتُ الشخص الوحيد الذي عملَ على الفكرة. أصحو من نومي، أُتابع جديد الحساب، من أرسل رسالةً؟ من أرسل قصة شهيد أو صورة أو أو.. أُعيد صياغتها، أكتُبها بطريقة جيّدة، أُرتّبها، أُرتّب الصورة، ثم أقوم بنشرها مع تاريخ الاستشهاد.

حافظت على ثوابت أساسيّة في نشر القصص: اسم الشهيد، صورته، تاريخ استشهاده، وبعض تفاصيل حياته، حتى لو بالحدّ الأدنى، الذي سنقولُ فيه للعالم إن هذا الشهيد ليسَ مُجرّد عدد. أن نقول لهم إنّهُ كانت لهُ حياة. نعم، بعض الناس كان يُرسل قصة بلا تفاصيل، فهوُ لا يعرفُ الكتابة، ولا يعرف كيفَ يتحدّث عن صديقه أو قريبه أو شقيقه، لا يعرفُ سوى حُبّه وتعلّقه به، فأدفعهُ لذلك بشدّة، مُرسلًا إليه بعض الأسئلة التي ستُكوّن القصة: هل الشهيد متزوج؟ هل عندهُ أولاد؟ تاريخ ميلاده؟ ماذا كان يدرس؟ ماذا كان يعمل؟ هل تتذكّر موقفاً مميزاً حصلَ معه؟ كيف كانت علاقته مع أهله وجيرانه؟ وهكذا أستخلصُ بعض التفاصيل من

المُرسِل، لتجعلني أُحوّلها إلى قصة ولو من فقرتيْن.

لم أتخيّل حجم التفاعل الذي لاقتهُ الفكرة. أولاً تفاعل الجمهور معها، نشر القصص وحديثهم عنها، شعاراتهم التي كانوا يُرفقونها مع كلّ مشاركة لقصّة من المنصة، وهم يكتبون أنّهم ليسوا أرقاماً، دعواتهم للناس كي تُتابع الفكرة، والتواصل الكبير معي من أشخاص آخرين لترجمة القصص إلى لُغاتٍ أُخرى، منها التركية والإنجليزية والصينية والفرنسية والإسبانية، وغيرها.

الأهمّ من كلّ ذلك، ما شهدتهُ من إقبالٍ شديد لأهالي الشُهداء وأصدقائهم. الكُل يُريد أن ننشر قصة. الكُل يريد أن يحكي عن صديقه ورفيقه وحبيبه وأخيه وأُمه وزوجه. هُنا أدركتُ حقيقة واحدة ثابتة وكبيرة: لسنا أرقاماً.

لا يزال هذا الإقبال مستمراً حتى اليوم. يجري استقبال القصص عبر أربع طُرق: «الإيميل» الرسمي للمُبادرة، الرسائل في حساب «إكس» وحساب «انستغرام»، وحساب «تلغرام» مخصّص للأمر نفسه. في كُلّ يوم يصل ما يزيد على عشر قصص لشُهداء، وفي كلّ يوم تصل عشرات الرسائل من أولئك الذين أرسلوا القصص في الأيام الماضية، يسألون متى سيتم نشر القصّة. هذا يسأل عن قصة شقيقه، وهذا عن قصة صديقه. الكُل ينتظر.

اكتشفتُ أنّ الناس تنتظر رؤية اسم الشهيد وصورته، كي ترتاح. أنهم يعتقدون الآن أنهم يقومون بشيءٍ كبير من أجلهم، أن يقولوا للعالم إن هذا الشخص ليس رقماً في العدّد المُستمر، فوزارة الصحّة تُعلن بشكلٍ مُستمر ارتفاع أعداد الشُهداء، الذي تخطّى حاجز الـ 40 ألفاً في الأيام الماضية. كُلنا نعرفُ شُهداءَ منهم، وكُلنا لا نُريد سوى أن نقول للناس إنّ من نُحبه أو نعرفه، هو شخص

كانت لهُ حياة وقصّة وذكريات وأحلام، وليس مُجرد إضافة يوميّة على رقم الأربعين ألف.

بقيتُ أعمل على الفكرة وحيداً، بينما ساعدني بعض الأصدقاء في البداية كي يُنقذوا استمرار الفكرة في حال الانقطاع، لكن هذا العمل المُكمّل منهم لم يكن أساسياً ولا دائماً، لانشغالهم. تبعَ ذلك إصراري على الاستمرار وحيداً. لاحقاً تواصلتُ مع خطّاط ومُصمِّم - للأسف لا أذكر اسمه - طلبتُ منه تصميم شعارٍ للمبادرة، لأعتمده في وقتٍ لاحق، ويصير علامة واضحة ورسميّة للفكرة التي أخذت تتطوّر يوماً بعد يوم. تبعَ ذلك إضافة الشعار إلى كلّ صورة ضمن قالب مُعين، تطوّر لاحقًا بإضافة اسم كلّ شهيد إلى الصورة مع الشعار، وتفاصيل مُهمة، كي تكون مرجعاً عندما يُشاهِد الصورة أحد الأشخاص، فيعود إلى المنصات ويتعرّف إلى شهداءَ آخرين.

شيئان مُهمّان طرأا على الفكرة لاحقاً: الأوّل أن فريقاً من مُبدعي المحتوى تواصلوا للمساعدة تطوعاً في المُبادرة، من تصميم وكتابة وتحرير ونشر، والثاني أنّ شركةً تعمل في لندن ودُبي، قدّمت عرضاً بتأسيس موقع إلكتروني للمُبادرة. وهاتان الفكرتان قائمتان حتى الآن.

فقد دخلَ معي فريق يضمُ كاتبتَيْ محتوى، ومُصمماً ومُساعدين آخرين في النشر والمُراجعة، سهّل العمل عليَّ بشكلٍ كامل، وهم أصدقاء يعملون اليوم بشكلٍ تطوّعي، وفيما بعد ومع امتداد الأشهر، صرت أعرضُ فكرة المُساعدة التطوعيّة على الجمهور، فأجدُ كثيراً من الكتّاب والمُحررين والصحافيين، الذين يُمكن الاعتماد عليهم في المساعدة في تحرير القصص وتجهيزها للنشر، وهي مُهمة ضرورية لتسريع العمل وتسريع تحقيق الهدف، بعدم تكدّس

القصص. والأهم، كي يكون الشهداء مُرتاحين حين لا ننساهم، وكي يكون أهلُهم سُعداء بأن يروهم ويروا قصصهم، يطوفُ بها الإنترنت، فيتحدّثون عنهم ويحكون حكاياتهم.

أنشأنا موقعاً إلكترونياً بلغتيْن، العربية والإنجليزية، كتبتُ افتتاحيّته، وكتبتُ رسالتنا. أنشأتُ فيه مساحة مخصّصة لإرسال القصص، وقسّمنا القصص على أقسام كثيرة، منها فئات الشهداء من رجال ونساء وأطفال وكبار سن، ومسعفين وصحافيين ومدنيين... إضافةً إلى تواريخ الاستشهاد ومناطقها، ما يجعل من الموقع مرجعاً كبيراً وأرشيفاً لكلّ قصص الشهداء التي نعمل عليها، حتى لا تكون المبادرة مجرّد فكرة عابرة، وأن يستعملها كلّ شخص يبحث عن شهيد.

كنتُ سعيداً حين تواصل معي أحد الأصدقاء، ليسأل عن أسماء شُهداء استشهدوا في تواريخ معيّنة، لاستخدامها في شيءٍ ما، وقد ساعدتهُ بالعودة إلى مُبادرتي. قلتُ لنفسي، على الأقل أصبحت مرجعاً. على الأقل نفعلُ شيئًا. كلّ ذلك، الآن وأنا تحت القصف، وأنا نازح هارب من غزّة إلى رفح، ثم إلى الزوايدة، ثم إلى دير البلح.. ثم ثم ثم.. ولا أزال أتذكّر الشهداء.

مرةً وأنا أجلس في مكان نزوحي في رفح، أقضي كثيراً من الوقت في تجهيز قصص الشُهداء للنشر في اليوم التالي، سألني أحد الشبان الذين ينامون معي في الغرفة نفسها: «انتَ ما زهقت من قصص الشُهداء؟ مش حتوقّف؟» سرحتُ قليلاً في السؤال، وسألتُ نفسي: فعلاً، إلى متى؟ حينها تأكدّتُ أنها ستكون إلى الأبد.

لطالما جلستُ مع نفسي أفكّر فيما حولي. في المُبادرة. كانت ولا تزال منفذاً لآلاف الناس كي يتحدّثوا قليلاً عن أحبائهم الذين

فقدوهم، وهؤلاء سيفوقون الخمسين ألفاً. هذا العدد الهائل من سيبقى ليحكي عنه؟ نعم لا ضرر، سأحكي أنا وسيحكي الجميع، هذه فرصة كي نحكي، حتى لو استمرَ الأمر لأكثر من عشرة أعوام.

نظرتُ إلى الفكرة من زاوية إقبال الناس عليها، كمرجع كبير وواسع ورسمي، كفكرة مؤسّسة لما هو أبعد من مجرّد منصة، كأرشيف كبير سنعمل عليه لسنوات، أتوقّع أن يعمل عليه آلاف المتطوعين أو المئات فيما بعد الحرب، أو حتى أشخاص كموظفين وعاملين وباحثين، إن كان للفكرة يوماً ما تمويلًا معيناً لإنجاحها واستمرارها.

عندما غادرتُ رفح، تحت وطأة المدافع، مُجبراً من الخوف على طفلتي الصغيرة وعلى عائلتي، نزحتُ إلى مكانٍ لا يوجد فيه إنترنت، ولا يزال الأمرُ مستمراً إلى الآن. أضطر كلّ يوم لأقطع المسافات كي أتصلَ بالإنترنت، وهو ما منعني من الاستمرار بالفكرة. لكن ذلك لم يكُن عائقاً، فقد صارت الفكرة مُستمرة إلى الآن.

بمجرّد أن قررتُ النزوح، عرضَ عليَّ شقيقي الصغير «أحمد»، الطالب الجامعي الذي لم يُكمل عامه الثالث في الجامعة بسبب الحرب، أن يواصل المساعدة في النشر والبحث عن القصص، رفقة المتطوعين. الآن هو يُدير الفكرة مع الفريق رسمياً، وأنا أُشرف على الأمر، أُقدم له النصائح والملاحظات، وأتابع الأمور الرئيسية والرد على كلّ من يسأل أو يرغب في شيء غير إرسال القصص. وهي مُبادرة منه، سأبقى ممتنًا له عليها، طويلاً، فقط لأنّهُ استمرَ بالفكرة كما لو أنني هُنا.

لماذا أفعل ذلك؟ أفعلهُ لأنني أرى نفسي مكان كلّ شهيد. استشهد زوج أختي بعد بدء الحرب بأسبوعٍ واحد، كان مُسعفاً، ذهب يُنقذ

الجرحى بعد قصف مجموعة من النازحين على طريق «صلاح الدين الشرقي» في مدينة غزّة، قصفته الطائرات بصواريخها أثناء مُهمة إنسانية، وإن لم أكُنْ قد كتبتُ عنه ونشرت قصته في المنصة، لا أتوقّع أن يكتب عنهُ أحد أو يذكره أحد غير عائلته. كذلك كثيرٌ من الشُهداء.

كذلك سأكون أنا، رُبما ذلك، نعم، ورُبما يكون أحدٌ آخر من أهلي، كما كان كثيرٌ من أصدقائي الذين فقدتُهم في هذه الإبادة.

لطالما سألتُ نفسي، إذا متّ واستشهدت، ماذا سيحكي عني الناس؟ كيف سيتذكّرونني؟ ماذا سيقولون؟ ماذا سيقول هذا وماذا سيحكي ذاك أو يتذكّر؟. تمنّيت لو أنّ الشهداء كُلهم يعودون ويستطيعون أن يروا ما قالهُ عنهم الناس. كلّ كلمات الحُب، كل المواقف الجميلة، كُل التفاصيل، كلّ الأشياء التي تعود إلى الذاكرة، تستحقُ أن يعرفها الشهيد، كما تستحقُ أن يعرفها الناس.

لأنني أُدرك أنني عندما أموت، لن أستطيع العودة لأرى ما كتبوا عنّي، قرّرت أن تكون هذه الفكرة.

هذه الفكرة من أجلي ومن أجل كُل الشهداء. غداً حين أكونُ مكانهم، سأكون مطمئناً، وأنا أعرف أنّ كل هؤلاء الذين أتحتُ لهم فرصةً للحديث عن أصدقائهم الشهداء وأحبابهم، سيتذكرونني كثيراً.

وكما قال صديقي الشهيد الدكتور «رفعت العرعير»: «إنْ كُتب عليّ الموت، فليجلب موتي الأمل، فلتكن حكاية، وليكن موتي حكاية». كتبَ «رفعت» هذه الكلمات، لكنّني كنتُ أفكّر فيها

قبل أن يرحلَ عنّا، كنتُ طويلًا، في كلّ ليلة أحكيها لنفسي ولمن حولي، والآن، كانت مُبادرة «شُهداء غزّة»، كي يكون هذا الموت حكاية.. ولتَكُن حياة الباقين بعد الشُهداء، فرصة للحكاية أيضاً.

نبيل عناني - فلسطين

2024-07-04

بلد القبعات..

في غزة - وبغض النظر عن القصف والقتل والاعتقالات - فالحياة «العادية» نفسها في غاية الصعوبة: التنقل، واثمان الحاجيات حين تتوفر، وحتى الحصول على قبعة تقي قليلاً من الشمس الحارقة لمن يعيشون معظم نهارهم في العراء

يلبسُ سائق عربة الحمار قُبعة كبيرة تُغطي كلّ جوانب رأسه، قُبعة مشجرّة، لونها رمادي، تملؤها أوراق شجرٍ خضراء. إلى جانبه يجلسُ سائقٌ آخر، يلبس قبعة أُخرى، تُغطي مُقدمة رأسه. تبدو مهترئة من حرّ الشمس والوقت.

ألبسُ أنا الآخر قبعةً سوداء، تُغطي مُقدمة رأسي. كذلك يجلس اثنين آخريْن على العربة، وهُما يلبسان قبعتيْن.

قُبعتي، الجديدة بالنسبة لي، أعطاها لي «ولاء»، بعد أن طلبتُ منه واحدةً منذ نحو أسبوعيْن. كان يلبس القبعات في السابق كثيراً، علق في ذهني الأمر، وتوقّعت أن يكون لديه قبعاتٌ فائضة! اشتريتُ القبعة أو «الطاقّية» كما تُسمى باللهجة المحليّة، بداية نزوحي الجديد في وسط قطاع غزّة. أعيش في بلدة الزوايدة، وهي

بلـدة نائيـة لا ملامـحَ حيـاةٍ فيهـا، سـوى الشـوارع الرمليـة وأكـوام القمامـة ومسـتنقعات المجـاري والعربـات الـتي تجُرهـا الحمـير في كلّ مـكان. المواصـلات صعبـة جـداً، والحركـة فيهـا تتطلّـبُ المـشي الطويـل، ومقاومـة الرمـال في حـرّ الصيـف. لم يكُـن الـنزوح في رفـح بهـذه الصعوبـة. هُنـاك اتصلَ الشـتاء بالربيـع، مـع وجـودي في منـزل، تأويـني فيـه جـدرانٌ وسـقفٌ مـن الباطـون. اختلفَ الأمـر هُنـا. خيمـة في صيـفٍ شـديد الحـرارة، تغـزوهُ موجـات الحـرّ الحاميـة.

اشـتريتُ القبعـة بدايـة نزوحـي بعشريـن شـيكلاً فقـط، وقـد رأيتـهُ سعراً مرتفعاً جداً، مقارنـةً بالسعر العـادي في الوقـت العـادي. لكـن لا غرابـةَ في ذلـك، فـلا شيءَ عـادي الآن.

ظلّـت القبعة صديقتي اليوميّة لأكثر من شهر.

اعتـدتُ عليهـا للدرجـة الـتي كنـتُ أنسى أنهـا عـلى رأسي حـين أدخـل في مبـانٍ وأماكـن للعمـل أو لجلسـة معيّنـة، فأبقـى مرتديـاً قبعـتي دون أن أفكـر في نزعهـا.

رحلـتْ القُبعة بطريقةٍ غريبة جداً، كما أقول لأصدقائي.

طـارت مـنّي أثنـاء ركوبـي شـحن نقـل، كوسـيلة مواصـلات «عاديـة جـداً» في الحـرب وفي هـذا المـكان. طـارت مـن قـوّة الريـح، ومـن حـولي أكـثر مـن 51 شـخصاً اكتظّـت بنـا الشـاحنة المفتوحـة مـن الخلـف.

لم تُسـعفني المسـافة الـتي ناديـتُ فيهـا عـلى السـائق ليتوقّـف، كي ألتقـط القبعـة الـتي وقعـت عـلى الأسـفلت مـن خلفـي. في الوقـت نفسـه، كان هنـاك شـابٌ يجـري بدراجتـه الهوائيـة، التقطهـا، لا ليـأتي بهـا إلي، إنمـا ليسـتدير نحـو أوّل شـارعٍ باتجـاه اليمـين وينطلـق بهـا.. يسرقهـا. للحظـة ظننـتُ أنـني في فيلـمٍ سـينمائي!

- كمل طريقك كمّل، خلص. قُلتُ للسائق قبل التوقّف، وقد أيقنتُ أني أضعتُ صديقتي.

بقيتُ في الأسابيع الثلاثة الأخيرة أبحثُ عن قبعة جديدة، دون جدوى. طلبتُ من كلّ من صادفت، وسألتُ كلّ من أعرف.

أقول لهم «بتعرف وين ببيعوا طواقي؟»، يكون الرد «لا والله»، أو «وأنا كمان بدي، إزا عرفت احكيلي». أقول لآخرين «إذا عندك طاقية جيبلي».

كذلك كنتُ أجوب سوق دير البلح، حيث مركزية المنطقة الوسطى وسوقها الذي تجد فيه كلّ ما تُريد - من المفترض طبعاً ان يكون الأمر كذلك. لا محل ولا بسطة ولا أي بائع متجوّل يبيع «الطواقي».

في آخر الأمر، نجحتْ محاولتي بمُعجزة لا أعرفُ كيفَ صارت. بالصدفة، سألتُ بائع الفواكه بعد أن اشتريتُ منه أربع حبات تُفاح، ودفعتُ له 22 شيكلاً، «بتعرف وين ببيعوا طواقي؟». ردّ صديقه الذي يقف إلى جانبه، ليدُلني على مكان يبعُد نحو المئة متر. تجوّلت هناك كثيراً وسألت. لكنّي قرّرت المحاولة مرةً أخرى، كأنّ القدر كان يسوقني إلى شيء كُتبَ لي.

قُرب محل يبيع البرادات، سألت صاحب بسطة يبيعُ مستلزماتٍ حياتية يوميّة عادية جداً «عندك طواقي؟»، فأشار إلى زميله في البسطة المُقابلة له، وقال «هداك ببيع». صدمة، هُناك من يبيعها، وهُناك من دلّني على مكان! مُعجزة فعلاً.

التفتُ إلى البائع المُقابل وناديت «عندك طاقية؟»، ناديتُ دون أن أنتبه أنه كان يُمسك بقبعة في يده ويلوّح بها، قبل أن يقول لي

«هي آخر حبّة». حقًا مُعجزة، وهي الأخيرة أيضاً عند بائعها، وأنا أتيتُ لآخذها!

اشتريتُ القبعة الأخيرة لدى البائع، التي لا ترقى لمستوىً نظيف ومُميّز وقوي، بثمن 53 شيكل. أي ما يزيد بـ51 شيكلًا عن القبعة السابقة الهاربة من شاحنة المواصلات، الأصلية والمُميّزة والقوية. ما يُقارب نصف حقها، لكن مثل كلّ أمور الحرب، ما بيدي حيلة. اشتريتُ ودفعتُ.

تدور في الشارع، تمشي في السوق، تصعد في السيارة، تركب الباص، تستقلُ كارة حمار، تنظرُ إلى البائعين، تُشاهد المارّة. هناك شيءٌ مشترك لدى أغلب الناس: يلبسون قُبعات!

في إحصائية سريعة قمتُ بها، أثناء تأملاتي الذاتية، بيني وبين صوتي الداخلي الذي ينطلقُ من عقلي، وجدتُ أن ثُلثي الناس في غزّة يلبسون القُبعات.

لا يوجد شخص واحد في قطاع غزّة كله، لم ينزح من بيته، ولو لأيام أو لأسبوع أو لشهر.

كُلنا اضطرتنا هذه الحرب لنهرُب، كما لم تُجبرنا حربٌ أخرى.

وكُلنا احتجنا قُبعة.

بعيداً عن القُبعة، وفي الأيام التي كنتُ أبحث فيها عن واحدة، أقضي وقتاً طويلاً في البحث عن سيارة أو انتظار وسيلة مواصلات، فيغلي فيها رأسي، أشعر أن الحرارة تصل الى ذروتها فيه، مع ضرب الشمس الشديد له. للحظة أعتقدت أنني سأصاب بضربة قاتلة من شدّة الحرارة.

كلّ النـاس يعيشـون الأمـر نفسـه هُنـا. تمـشي في الشمـس طويـلاً طويـلاً. حـرارة مرتفعـة، اختنـاق، واسمـرار شـديد، الجلـود تنسـلخ، والبـشرة تتقـشّر وتحـترق.. وآآه، نُريـد قُبعـة.

«بتعرف من وين بشتروا طاقيّة؟»..

«لا والله، لو لقيت أنا كمان بدي»..

«خلصوا والله، في كل البلد»..

«كلو لابس طواقي»..

«طاق طاق طاقية.. تعيش الوحدة العربية»..

«بس يا حمار، أيّة وحدة، واحنا مش لاقين طاقيّة واحدة!!»

أقف في الشارع وأتأمّل، أُحصي العدد، لا أستطيع العدّ. من يلبس قبعة عددهُ أكبر ممن لا يلبسها، وإن سألت من لا يلبسها، فهو يُريد، لكنهُ لا يستطيع، فهو مثلي يبحثُ عنها، بالتأكيد يسأل في كل مكان ولا يجد، ولا يعرف صديقًا مثلَ ولاء يوفّر لهُ قُبعة.

أقف وأنظر وأتأمل..

بالتأكيد هذهِ بلد المليون قبعة.. أو طاقية!

موقع السفير العربي:
www. assafirarabi.com

كتب السفير العربي - 2025